Performative Actions of Discourse and the Communicative Opportunity: The Commandment of *Umama Bint al-Harith* to her Daughter *Umm Eyas* as an Example

الوظائف الإنجازية للخطاب والفرصة التواصلية وصية امامة بنت الحارث لابنتها أم إياس نموذجاً

Dr. Kholoud Al-Omoush
The Hashemite University
khomoush@hu.edu.jo

د. خلود إبراهيم العموش
الجامعة الهاشميّة

Receive Date: 13/3/2021 Accept Date: 1/5/2021 Publish Date: 30/6/2021

Doi: 10.37654/aujll.2021.171102

Abstract

This study examines performative actions through discourse that achieve its communicative opportunity by applying an applied model, namely the commandment of *Umama bint Al-Harith Al-Shaibaniyyah*'s to her daughter *Umm Iyas*. It is a pragmatic linguistic study based on tracing the intentions of the sender starting from the speech structures and their actual value, and studying the impact of communicative contexts on the production and interpretation of utterances.

The study explored the structural, semantic, and pragmatic conditions by which this text attempted to be acceptable and successful in its context. It also explored the discourse strategies and techniques that it employs to achieve its purposes, and the performative functions of the speech acts represented in it. It also also explored the sources of the performative energy that this discourse has, and the pragmatic functions performed by the referential structure in the text through the duality of the presence and absence of the refrential elements most prevalent in it. Finally, it explored the idea of the communicative opportunity and the impact of the discourse as was manifested in the studied text.

The study highlights the significance of the first-glance strategies in the opening part of the text and its pivotal role in paving the way for

fleshing out the list of orders, prohibitions, directions, and dictations in this kind of commandments. The study also shows that studying speech acts through their different contexts is a crucial key to account for the processes associated with linguistic performance.

Keywords: Performative functions, Pragmatics, Communicative Opportunity, Discourse.

الملخص

يدرس هذا البحث الوظائف الإنجازية للخطاب التي تحقق فرصته التواصلية، من خلال نموذج تطبيقي هو وصية أمامة بنت الحارث الشيبانية لابنتها أم إياس. وهي دراسة لغوية تداولية، تقوم على تتبع مقاصد المرسلة من خلال الانطلاق من البنى القولية وقيمتها الفعلية، ودراسة أثر السياقات التواصلية في إنتاج العبارات وتأويلها.

ووقف البحث عند الشروط التركيبية والدلالية والتداولية التي حاول بها هذا النص أن يكون مقبولاً وناجحاً في سياقه، وعند الاستراتيجيات والتقنيات الخطابية التي توسل بها للوصول إلى مقاصده، وعند الوظائف الإنجازية لأفعال الكلام الماثلة فيه، كما وقف عند مصادر الطاقة الإنجازية التي اكتنزها هذا الخطاب، وعند الوظائف التداولية التي أدتها البنية الإحالية في النص عبر ثنائية الحضور والغياب للعناصر الإشارية الأكثر حضوراً فيه، ثم وقف أخيراً عند فكرة الفرصة التواصلية وأثر الخطاب كما تجلت في النص المدروس.

وأظهر البحث أهمية استراتيجيات الوهلة الأولى في فاتحة النص، ودورها المحوري في التهيئة لقائمة الأوامر والنواهي والتوجيهات في هذا الضرب من الوصايا، كما أظهر أنّ دراسة الحدث الكلامي عبر سياقاته المختلفة تمثل المفتاح الحقيقي الذي يفسّر العمليات المصاحبة للأداء اللغوي.

الكلمات المفتاحية: الوظائف الإنجازية، التداولية، الفرصة التواصلية، الخطاب.

مقدمة:

تعدّ الدراسات التداولية التطبيقية نظراً متقدّماً في السيرورة الحية التي تعمل بها اللغات، وهي بمنزلة نافذة مفتوحة تبصّرنا بما يجري داخل العملية التواصلية، وتخبرنا عن الطريقة التي يحقق بها الخطاب أغراضه ومقاصده. وهي ترجمة حقيقية للوظيفة التفاعلية للغات التي تبنى على اتصال لغوي حي بين مرسل ومتلقٍ عبر الخطاب الذي يشكّل نشاطاً متبادلاً بينهما تتوقف صيغته على أغراضه ومقاصده، وتجربة دينامية يتشاركان في صنعها بمعيّة عناصر أخرى تستمدّ من السياق الذي تولّد فيه. وتعين هذه الدراسات في الوصول بالخطاب إلى أقصى حدٍ ممكن من التأويل؛ وذلك بالوقوف على الرؤى والبنى والمرجعيات والأسس المعرفية والخلفية التي أسهمت في تشكّل هذا النتاج التواصلي.

وينتسب هذا البحث إلى هذا الفضاء البحثي؛ إذ يدرس وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس دراسة لغوية تداولية، تجلي الوظائف الإنجازية لهذا الخطاب ودورها في تحقيق الفرصة التواصلية؛ وذلك بتتبع مقاصد المتكلمين انطلاقاً من "البنى القولية وقيمتها الفعلية، ودراسة أثر

السياقات والمقامات التواصلية في إنتاج العبارات وتأويلها"،[1] ودراسة "شروط الاستعمال التخاطبي والمقامي للملفوظات"[2] ؛ أي إنّها تعنى بالبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة إنجازياً؛ إذ إنّ مفهوم الخطاب يرتبط بمسألتي الإنتاج والتأويل، وهما عند (أشار) "لا يتصلان بالجانب اللساني وحده، وإنما لهما علاقات مع الأبعاد الأخرى غير اللسانية التي تسهم في تشكيله، وخاصة الأبعاد التداولية التي تتصل بالمتكلم وعلاقته بالخطاب ووضعية إنتاجه ومقاصده وأهدافه".[3] ويعلي محمد مفتاح من شأن الاهتمام بتداولية الخطاب ووظائفه الإنجازية، ويعدّ ذلك أمراً ملحاً، بل هو من أهمّ نقاط العمل لدى محللي الخطابات.[4]

ويندرج هذا البحث أيضاً ضمن محاولة إعادة قراءة المادة اللسانية العربية في شتى عصورها، وتفسيرها عبر المنجز اللساني الحديث بآفاقه الرحيبة، وهي محاولة لإدخال الحيوية إلى درس اللغة بدراسة تجلياتها في إطارها التداولي؛ مما يفتح الباب واسعاً على "تناول المنتوج اللغوي الإنساني من زوايا نظر جديدة أعادت النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى"؛ [5] ذلك أنّ دراسة الخطاب في إطار الاستعمال وفي السياق الاجتماعي يعدّ ربطاً مباشراً للخطاب اللغوي بحركة المجتمع واهتماماته وقضاياه وثقافته. ولعلنا بهذا نقترب خطوة من معرفة السيرورة التي تعمل بها اللغة، وكيفية تشكّل رسائلنا اللغوية لتؤدي الأغراض التي نريدها ضمن سياقاتها، وهي مقاصد متقدمة تلخص جوانب أهمية هذه الدراسة.

ويصدر هذا البحث في منهجيته من ذلك الطرح اللساني الذي يتبناه (ديكرو) و(فان ديك) الذي يقوم على عدم الفصل بين البعد الدلالي والتداولي في الخطاب، وعبّر عنه (ديكرو) بقوله: "إنّ معنى أي ملفوظ لا يمكن أن يوصف دون استحضار مقصدية معينة لتلفظه".[6]ووفقه دعا (فان ديك) إلى "عدم الاكتفاء بدراسة النص من جهة عناصره وبنياته الداخلية فقط، بل ودراسته من جهة فعاليتها ووظيفتها، وعدم الاكتفاء بدراسة النص من جهة قدرته على أن يمثِّل خارجاً، أو يحيل إلى مرجع، أو يعكس سياقاً يقع خارجه، بل ودراسته من جهة قدرته على توفير الشروط التي تحوّله إلى فعل لغوي مناسب للتأثير في سياق خاص، وهو ما يطلق عليه بعض علماء النص (التداولية النصية)".[7]

---

[1] طلحة، محمود، التداولية وتحليل الخطاب: نحو تحليل جديد لجنس المقامة في الأدب العربي، فصل في كتاب: "التداوليات وتحليل الخطاب"، إشراف وتقديم حافظ إسماعيلي علوي ومنتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2014، ص208.

[2] عادل، عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف/ دار الأمان، الرباط، ط1، 2013، ص66.

[3] الميساوي، خليفة، لسانيات النص بين اللسانيات العربية واللسانيات الغربية الحديثة، فصل في كتاب" لسانيات النص وتحليل الخطاب"/المؤتمر الدولي الأول للجمعية المغربية للسانيات النص وتحليل الخطاب، بإشراف أ.د محمد الخطابي، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أغادير، المغرب، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2013، مجلد1 /ص248. وحول آراء (أشار) في هذا انظر: أشار (بيار)، سوسيولوجيا اللغة، ترجمة عبد الواحد ترّو، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1996، ص13 وما بعدها.

[4] مفتاح، محمد، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1990، ص44.

[5] بنكراد، سعيد، السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار، اللاذقية، ط3 ،2012، ص10.

[6] عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص96.

[7] ديك، فان، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، ط1، 2000، ص67.

ولا يبتعد (موشلر وروبول) عن هذا الطرح؛ فهما يريان أنّ "الحاجز منفتح بين الدلالة والتداولية؛ لأنّ المعنى مرتبط بسياق تلفظ معين، وبوظائف تخاطبية محددة، وهذه التداولية المدمجة هي النظرية الدلالية التي تعطي الأهمية الأساس للمعطيات التداولية في إطار المعنى"؛[1] أي إنّ من الضروري إتمام التحليل اللساني للجمل بالتحليل التداولي، من حيث استعمالها في سياق معين؛ فالدلالة على المقاصد والأغراض تقتضي "استعمال ما يلائمها من أشكال التركيب وصوره، ومراعاة المقام تعني ضرورة الربط بين التركيبي والدلالي والتداولي؛ أي بين شكل الخطاب ودلالته وسياقه". [2]

إن من أهم مظاهر الدرس التداولي ربطه بين حركة الخطاب وحركة السياق؛ ذلك أنّ معنى الخطاب "لم يعد يلتمس في البنية اللغوية المجردة، ولكنه يعرف من خلال الانفتاح على السياقات التي تستوعب الكلمات والعبارات، والمجالات المعرفية المتنوعة داخل الخطابات"؛[3] وبهذا يعدّ السياق" بنية فاعلة في إنتاج النص قدر فاعليته في تفسيره وتلقيه".[4] ويتكوّن السياق التداولي "من كل العوامل النفسية والاجتماعية التي تحدد نسقياً لكي تلائم أفعال اللسان"،[5] وبه يستعين السامع على تجسير الهوّة بين ما تحمله الملفوظات من معانٍ وما يضمِّنه المتكلم فيها من مقاصد؛ وذلك بالاستناد إلى نوع من الاستنباط يعرف بـ (الاستلزام التحادثي)؛[6]حيث يضطلع كل من "السياق والمعارف المشتركة بين المتفاعلين بدور مهم في التعرف على ما يتضمّنه الملفوظ من استلزامات"؛[7] فصناعة المعنى في المعالجة التداولية لا تستند إلى "البيّن في النص فقط، ولكنها بحاجة إلى المستتر أو المقدَّر المسلّم به المفترض معرفته وتداوله في أعراف المتخاطبين"،[8] وهو ما يطلق عليه (لورانس ستيرن) "البياضات"، وهي عنده فكرة أو تركيب يتركه المنشئ قصداً منه إلى إشراك القارئ،[9] وهذه البياضات من وجهة نظر(إنجاردن)"لا تشتغل كلياً كعناصر انقطاع، وإنما كبنية للتواصل"،[10] وهي تعتمد اعتماداً رئيساً على قدرات

---

(1) روبول، آن، وموشلار، جاك، التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2003، ص109.

(2) المرجع السابق، ص110.

(3) بودرع، عبد الرحمن، في تحليل الخطاب الاجتماعي السياسي: قضايا ونماذج من الواقع العربي المعاصر، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015، ص13.

(4) عيد، محمد عبد الباسط، النص والخطاب: المفهوم والإجراء، مجلة عالم الفكر، العدد1، المجلد 23، 2014، ص48.

(5) عياشي، منذر (إعداد وترجمة) العلاماتية وعلم النص، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 2009، ص170.

(6) عن الاستلزام التحادثي انظر: صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص40 وما بعدها. وآرمينكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ط1، 1986، ص66. وعلوي، حافظ إسماعيلي (تنسيق وتقديم)، التداوليات: علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2014، ص21 وما بعدها. وتغزاوي، يوسف، الوظائف التداولية واستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2014، ص32. وعبد الرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1998، ص98. وأدراوي، العياشي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني: من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، دار الأمان، الرباط، ط1، 2011.

(7) عبيد، حاتم، نظرية التأدب في اللسانيات التداولية، مجلة عالم الفكر، العدد1، المجلد 43، 2014، ص118.

(8) عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي السياسي، ص18.

(9) بوحوت، عادل، جمالية التجاوب في الأدب: الأسس والمفاهيم والإشكالات، مجلة عالم الفكر العدد3، المجلد 42، 2014، ص21.

(10) المرجع السابق، ص20.

القارئ ومهاراته؛ ولذلك فإنّ محاورة النص ليست متماثلة بالنسبة إلى جميع القراء؛ فالنصوص تتيح إمكانات متشعِّبة للاحتمال الدلالي الذي يعظّم من دور القارئ في تشكيل النص وفي بناء معناه وتأويله عبر دراسته المتأنية للسياق الداخلي للنص؛ فهذا السياق هو "الأداة الثانية بعد القارئ لتحليل النص وتحديد سماته وضبطها"[1]وفقاً لريفاتير. ومهمّة اللساني هي "تجميع كل سمات الخطاب وسمات مبلّغه، والبحث في المقاصد الأكثر وعياً للمؤلف"، [2] ولا يعني ذلك بالضرورة أنّ وعي المؤلف يحيط بسمات الخطاب ومقولاته كلها التي يقف عليها محللو الخطابات.

وعلى الرغم من أنّ تحليلنا لهذا النص وصولاً إلى وظائفه الإنجازية سيعتمد على تضافر النحو مع المستويين التداولي والدلالي، إلا أنّ النحو – وفقاً لما تراه الباحثة- هو المستوى الذي تتجلى فيه التعالقات النصية كلها، وهو المشكِّل الرئيس لبنية النص؛ فهو الذي يتحكم بأنماط الجمل المستخدمة في النص وطرائق تماسكها، و"هذه الأنماط تتعلق تعلقاً كبيراً بالأحوال التي يستعمل فيها الخطاب"[3] وفقاً لفاولر، كما أنّ المعاني الواسعة للنصوص والخطابات "إنما تصنعها التقييدات النحوية في ذلك الخطاب، والنحو هو الذي يوزِّع المواد المعجمية والمشكِّلات غير المعجمية أيضاً في النص، كما أنه يترجم تركيب المعنى المجرّد إلى قطعة من السلوك التتابعي، ويقوم بذلك من خلال توليد سلسلة خطية من الكلمات المنطوقة في نموذج قياسي"،[4] كما أنّ المعنى النصي يتغير بتغير المعنى التركيبي، وهذا بدوره"يتقولب بحسب المعنى التداولي في الخطاب؛ أي بحسب العلاقة بين المتكلمين وسياق خطابهم"[5] وفقاً لشولز؛ ولذلك فإنّ البنية الدلالية هي شيء ينجزه القارئ عبر عمليات الاستدلال المختلفة التي يقوم بها بحثاً عن النماذج القياسية التي أنشأها النحو ترجمة للرسالة اللغوية التي يريد المرسل إيصالها؛ وتتبدّى هنا مهاراتنا التأويلية بالإمساك بهذه النماذج وتفكيكها سعياً لبناء المعنى.

إنّ هذا الضرب من الدراسات - وفقاً لفرانسواز آرمينغو- ينظر إلى اللغة "باعتبارها ظاهرة استدلالية وإيصالية واجتماعية في الوقت نفسه"،[6] وبناء التمثيل الذهني لنص ما "لا بد أن يراعي فيه مفسّر النص وظيفيّة النص في السياق الاجتماعي، وكذلك وظيفته الإنجازية؛ أي إنه يعيد بناء قصد المتكلم بنسبته إلى سياق الموقف وسياق التفاعل"؛[7] وبذا فإنّ معنى الخطاب سيكون خلاصة التفاعل بين عناصر تداولية(المتكلم /المخاطب/المقام)، وعناصر لغوية (النص في شكله ولفظه وصوته ونظمه ومعناه وصوره وأساليبه)، وما يشدّ المحلل هو "الشروط التي توافرت في كل عنصر من العناصر، والعلاقات المتبادلة بينها، والدور الذي تؤديه مركَّبة

---

(1) ريفاتير، ميكائيل، معايير الأسلوب، ترجمة وتقديم وتعليقات، حميد لحمداني، منشورات دراسات/سال، ط1، 1993، ص9.

(2) عياشي، منذر، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1998، ص14.

(3) الغانمي، سعيد (اختيار وترجمة)، اللغة والخطاب الأدبي، المركز الثقافي الملكي، بيروت، ط1، 1993، ص70.

(4) المرجع السابق، ص73 -74. ويرى (موريس) و(كارناب) أنّ النحو يدرس العلاقات الداخلية بين العلامات اللغوية، وعلم الدلالة يدرس علاقاتها بالأشياء والعالم، والتداولية تدرس علاقات العلامات بمستعمليها، وبالجملة فإنّ الكلمات لهذه الثلاثية هي: النحو، والوجود، والاستعمال، أو الصورة والدلالة والسياق، وأنه لا يمكن الفصل بين هذه المستويات في أي تحليل لغوي تداولي. انظر: مايير (ميشيل)، التركيبات والدلاليات والتداوليات وأصول الحجاج، ترجمة محمد أسيداه، فصل في كتاب "الحجاج: مفهومه ومجالاته، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2010، المجلد الثاني، ص، 345.

(5) سعيد الغانمي، اللغة والخطاب الأدبي، ص105.

(6) فرانسواز آرمينكو، المقاربة التداولية، ص8.

(7) فولفونجانج (هاينه مان)، ديتر (فيهفجر)، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة سعيد بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2004، ص133.

مجتمعة في أداء الوظيفة المنوطة بها".[1] ولا بدّ مع هذا من استحضار جنس النص؛ فإنّ دراسة فعالية النص في ألفاظه المفردة والمركّبة، وفي معانيه ومضامينه، لا تكون ممكنة إذا استبعدنا جنس النص وبنيته العليا.

إنّ الوصية -وفقاً لتصنيف (أوستن) [2] للمنطوقات اللغوية- فعلٌ إنجازي، وله غرض إنجازيٌ معين، يستخدم المتكلم فيه استراتيجيات خطابية، ويستفيد من إمكانية الاختيار بين وسائل مختلفة انطلاقاً من الهدف؛ ولذلك سندرسها باعتبارها فعلاً إنجازياً له مقصدية معينة تتمثل في تزويد البنت بما يُمَكّنُها من شقّ حياتها بعد الزواج بنجاح، ثم سنقف على الاستراتيجيات الخطابية التي سلكها النص في تحقيق مقاصده.

ويحاول هذا البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما الشروط التركيبية والدلالية والتداولية التي حاول بها هذا النص أن يكون مقبولاً وناجحاً في سياقه؟
- ما الاستراتيجيات الخطابية التي توسّل بها هذا النص للوصول إلى مقاصده؟
- كيف تبدّت الوظائف الإنجازية للنص عبر الأفعال الكلامية الماثلة فيه؟
- ما مصادر الطاقة الإنجازية التي اكتنزها هذا الخطاب؟
- ما الوظائف التداولية التي أدّتها البنية الإحالية في النص؟
- أين يكمن أثر الخطاب وفرصته التواصلية؟

وبذا سيأتلف هذا البحث من العناوين الآتية:

أولاً: النص والسياق.

ثانياً: استراتيجيات الوهلة الأولى ومقاصد الخطاب.

ثالثاً: نحو الوصية ووظائفه الإنجازية.

رابعاً: البنية الإحالية في النص وثنائية الحضور والغياب.

خامساً: الفرصة التواصلية وأثر الخطاب.

الخاتمة والنتائج.

أولاً: النص والسياق

وُصِفَتْ وصيّة أمامة بنت الحارث بأنها "من أفضل الوصايا وأكملها في موضوعها".[3] ولهذه الوصيّة رواياتٌ متعددة، غير أنّ الباحثة اختارت رواية أبي حاتم السجستاني المتوفى سنة (248هـ) في كتابه "المعمّرون والوصايا"؛ لأنّها أقدم الروايات. ولها خبرٌ ساقه الإخباريون؛ [4]

---

[1] المودن، حسن، بلاغة الخطاب الإقناعي: نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1،2014، ص22.

[2] أوستن، نظرية أفعال الكلام (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ط1، 1991، ص101.

[3] الفريح، سهام، فن الوصايا في الأدب العربي القديم، مكتبة المعلا، الكويت، ط1 ،1988، ص38.

[4] حول الخبر انظر: ابن حبيب، أبو جعفر محمد (ت 245 هـ)، المحبّر، اعتنى بتصحيحه إيلزة ليختن شتيتر، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بلا تاريخ، ص349. والسجستاني، أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان (248 هـ)، المعمَّرون والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1961، ص117.وابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت 328 هـ)، العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الدحني، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، الجزء 6/83-84. والذي في العقد الفريد أن عمرو بن حجر خطب إلى عوف بن محلّم ابنته أمّ إياس، فلما كان بناؤه بها قالت لها أمها توصيها. والميداني، أبو الفضل أحمد بن محمّد الميداني النيسابوري (ت 518 هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة،

مفاده أنّ الملك الحارث بن عمرو الكندي بَلَغَهُ عن ابنة عوف بن محلّم بن ذهلٍ بن شيبان جَمالٌ وكمال؛ فأرسل امرأة اسمها عصام تتفحّصها، فعادت إليه فوصفتها له وصفاً حسّياً دقيقاً، فأرسل وراء أبيها يخطبها منه، فزوّجه إياها، فبعث إليها بصداق بمثل مهورِ نساءِ الملوكِ، مئة ألف درهم وألف من الإبل، فقالت لها أمّها توصيها:

"أي بنيّة، إنّ الوصيّة لو تركت لعقل وأدب، أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منكِ، ولزويته عنكِ، ولكنّ الوصية تَذكِرةٌ للعاقل، ومَنْبَهةٌ للغافل. أي بنيّة، إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنتِ أغنى الناس عن الزوج، ولكنْ للرجال خُلِق النساءُ، كما لهنّ خُلِقَ الرجالُ.

أي بنيّة، إنك قد فارقت الحواء الذي منه خرجتِ، والوكر الذي منه درجتِ، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بملكه عليكِ ملكاً؛ فكوني له أَمَةً يكنْ لكِ عبداً.

واحفظي عني خصالاً عشراً، تكن لك دركاً وذكراً. فأما الأولى والثانية، فالمعاشرة له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة، فإنّ في القناعة راحة القلب، وحسن السمع والطاعة رأفة الرب. وأما الثالثة والرابعة، فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشمّ أنفه منك إلا طيب الريح. واعلمي –أي بنيّة- أنّ الماء أطيب الطيب المفقود، وأنّ الكحل أحسن الحسن الموجود. وأما الخامسة والسادسة، فالتعهّد لوقت طعامه، والهدوّ عند منامه، فإنّ حرارة الجوع مَلْهَبة، وتنغيص النومة مَغْضَبة. وأما السابعة والثامنة، فالاحتفاظ بماله، والرعاية على حشمه وعياله، فإنّ الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة، فلا تفشي له سراً، ولا تعصي له أمراً، فإنك إنْ أفشيتِ سرّه لم تأمني غدره، وإنْ عصيتِ أمره أوغرتِ صدره. واتقي الفرح لديه إذا كان ترحاً، والاكتئاب عنده إذا كان فرحاً، فإنّ الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، واعلمي أنّك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواكِ ورضاه على رضاكِ فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يخير لكِ، ويصنع لكِ برحمته". [1]

هذا هو النص، وما تَقَدَّمَهُ مِن الخبر يمثِّل سياقَ الحالِ المباشرِ الذي أنتج فيه، والربط بينهما يمثّل غاية رئيسة من غايات هذه الدراسة؛ إذ إنّ التداولية تُعْنى "بتحليل عملية الكلام، ووصف وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل".[2] وفيما يهتم علم الدلالة بالشروط التي تجعل الأقوال مفهومة أو قابلة للتفسير، فإنّ التداولية هي "العلم الذي يُعْنى بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولةً وناجحةً وملائمةً في الموقف التواصلي؛ فهي معنيّةٌ إذن بالشروط والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات الموقف الخاصة

بيروت، بلا تاريخ، ج143/2. وانظر: الألوسي، محمود شكري الألوسي البغدادي (ت 1342 هـ)، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1971، ج19/2.

[1] هذه الرواية هي رواية أبي حاتم السجستاني، المعمرون والوصايا، ص119. وانظر الروايات الأخرى لهذه الوصية في: الوشّاء، أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق (ت 325 هـ)، الفاضل في صفة الأدب الكامل، تحقيق يحيى وهيب الجبوري، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991، ص223-224. وابن عبد ربه، العقد الفريد، 83/6-84. والعسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (ت395 هـ)، جمهرة الأمثال، دار الفكر، بيروت، ط2، 2010، 571/1-572. والتجاني، عبد الله محمد بن أحمد بن أبي القاسم (ت 721 هـ)، تحفة العروس ونزهة النفوس، حققه وهذّبه وعلق عليه محمد إبراهيم الدسوقي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، بلا تاريخ، ص121-122. والأبشيهي، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد (ت 854 هـ)، المستطرف من كل فن مستظرف، تحقيق إبراهيم صالح، ط1، دار صادر، بيروت، 1999، ج2 /219.

[2] Beaugrand (Robert De) and Dressler (Wolfgang), The Introduction of Text Linguistics, Longman Linguistics Library, London& New York, 4th Edition,1988, P.43.

به"؛[1] أي للعلاقة بين النص والسياق؛ فالدلالات تنشأ بطريقة سياقية تتحكم فيها القرائن الحالية التي تصاحب عملية الكلام، إلى جانب القرائن الخاصة بنظام اللغة التي يدركها المتلقي عبر معرفته بذلك النظام.

وفي هذا الإطار دعا (فيرث) إلى دراسة أبعاد الحدث الكلامي من جوانبه جميعها عبر قراءته في سياقاته المختلفة: سياق الحال، والسياق الثقافي، والسياق الاجتماعي،...، ويشمل سياق الحال عنده تجربة المتكلم والسامع، وهو عنده يمثّل المفتاحَ الذي يفسّرُ الكثيرَ من العمليّات المصاحبةِ لأداءِ اللغةِ لدى منتجِ الكلامِ ومتلقّيه. ولعل عبارته المشهورة تلخّص مجمل نظريّته حين يقول: "الافتراض الأساس أنّ كلّ نصٍ يعدّ مكوّناً من مكوّنات سياق ظرف معيّن". [2] ووفقاً لجون ميشال آدام فإنّ قراءة النص هي "عبارة عن إيجاد نوع من الملاءمة بين السياق الخارجي(المقام) والبنيات اللغوية، ومثل هذه العملية تعنى بالإجابة عن سؤال: كيف انتظم النص؟ وهل وفق المرسل في جعل النص يحيل على المقام الذي أُنتج فيه؟ وهل من رؤية جديدة تمكِّن من صياغة النص بناءً على معطيات جديدة أو قديمة يمتلكها القارئ؟"[3]

وربما يجدر بنا الوقوف أولاً على مواصفات المرسلة وسماتها قبل تحليل النص؛ فإنّ معرفة طبيعة المرسل مفتاح من مفاتيح فهم النص، وهو من أبرز العناصر المشكّلة للسياق. وأمامة بنت الحارث الشيبانية [4] هذه "سيدة بدوية حكيمة خبيرة"،[5] وهي "فصيحة نبيلة جاهلية"، [6]ولم تُعْرف سنة وفاتها، وكانت زوجة عوف بن محلّم الشيباني[7] أحد أشراف العرب في الجاهلية، وأحد المطاعين في قومه، وكانت تُضْرَبُ له قبةٌ في سوق عكاظ، وهو صاحب الوفاء الذي ضربت فيه الأمثال، فقيل: "لا حرّ بوادي عوف"، وقيل: "أوفى من عوف بن محلّم". ويقال عنه أيضاً: "لا أحد يشبه عوفاً جمالاً وكمالاً"،[8] وتوفيّ سنة (45) قبل الهجرة.[9] الهجرة.[9] ووجود أمامة في منزل هذا الرجل زادها نبلاً على نبل، وشرفاً على شرف. إنّ مواصفاتها الخاصة، ومواصفات زوجها تجعلنا نفهم هذه اللغة العالية التي اتّسمت بها هذه الوصيّة، وهذه السجايا التي دعت إليها، ولعله يفسّر تميّزها؛ "إذ إنّ لكلّ فضاء اجتماعي شخصيّته السوسيولغويّة". [10]

---

[1] Van Dijk.T.A., Text and Context, Longman, London,1977, P.79.

[2] Firth, J.R, Papers in Linguistics, Oxford University Press, London, 4th Edition,1964, P.68.

وحول آراء فيرث في هذا الصدد انظر: لاينز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987، ص215 وما بعدها.

[3] مسيس، رياض، مشروع ميشال آدام: مقاربة نظرية، فصل في كتاب " لسانيات النص وتحليل الخطاب"/المؤتمر الدولي الأول للجمعية المغربية للسانيات النص وتحليل الخطاب، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أغادير، المغرب، بإشراف أ.د محمد الخطابي، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2013، مجلد1 /ص240.

[4] حول أمامة بنت الحارث، انظر: محمد بن حبيب، المحبّر، ص349. والسجستاني، المعمرون والوصايا، ص117. وابن عبد ربه،العقد الفريد،6/83-84.والميداني، مجمع الأمثال، 2/124و222.والألوسي، بلوغ الأرب،2/17-19.

[5] خليفة، أحمد يوسف، قراءة في أدب الوصايا، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008، ص27.

[6]الدليمي، محمد نايف، جمهرة وصايا العرب، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991، ج1 /ص132.

[7] حول عوف بن محلّم انظر: محمد بن حبيب، المحبّر، ص349. وابن عبد ربه، العقد الفريد، 6/83-84. والميداني، مجمع الأمثال، 2/124و122. والألوسي، بلوغ الأرب، 2/17-19.

[8] أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، 2/252. والميداني، مجمع الأمثال، 2/263.

[9] الميداني، مجمع الأمثال، 2/263.

[10] حسن المودن، حسن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص298.

أمّا الموصى إليها فهي أمّ إياس ابنة هذين الكريمين، وقد دَرَجَتْ في عشٍّ صنعه هذان النبيلان، وعُرِفَ عنها "الحكمة والجمال والأدب". [1] ولعلّ: شهرة المرسلة، وشهرة والد العروس، وشهرة الزوج وهو أحد ملوك كندة، وشهرة العروس أمّ إياس بنت عوف، وبلاغة الوصيّة، هي العوامل التي وفّرت لها هذه الشهرة والسيرورة والتميّز.

إنّ الفائدة المتوخّاة من النص – وفقاً للجرجاني - لا تأتي من تركيب نحوي واحد، بل من صورة التأليف التي "يكون بها الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدّي في الجملة معنىً من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضمّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة".(2) ولا يبتعد (فان ديك) كثيراً عن فكرة "صورة التأليف" هذه، لكنّه يربطها بجلاء مع سياقها التداولي؛ إذ يرى أنّ النحو يجب أن يوسّع نظرته إلى البنى اللغوية المختلفة بحيث تشمل إضافة إلى البنية الداخلية والمعنى المسند إليها مستوى ثالثاً هو مستوى الفعل المنجز الذي سيمكّن من إعادة بناء جزء من المقتضيات التي تجعل الأقوال مقبولة تداولياً ومناسبة بالنظر إلى السياق التواصلي الذي تنجز فيه، ويدعو إلى إعادة بناء الأقوال ليس على شكل جمل، وإنما تجاوزها إلى وحدة الخطاب كتجلٍّ عمليٍّ لوحدة مجرّدة هي النص؛ لتحقيق غاية تفسير العلاقات النسقية بين النص وسياقه التداولي؛(3) فهذا النحو يأخذ بعين الاعتبار الأبعاد البنيوية والسياقية والثقافية كلها.

ولذا فالوجه في تحليل الخطاب وصولاً إلى غرضه – وفقاً للجرجاني – أن ننظر إلى "التعليق فيها (الكلم)والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها، ما معناه، وما محصوله؟"؛[4] فالمرسل حين يبني نصّه يختار التراكيب النحوية المناسبة لتحقيق غرضه، وتحليل تراكيب النص وأبنيته تبدو أقصر الطرق وأكثرها فاعلية للوصول إلى غرضه؛ ولذلك، وبالإفادة ممّا أورده الجرجاني ثم (فان ديك)، سننظر في أبنية النص، وسنتوقّف عند عبارات المفتتح، ثم الجسم الرئيس للوصية، وندرسها جميعاً للإمساك بدلالاتها ومراميها، وصولاً إلى مقاصد الخطاب وما يثوي خلف النص من أنساق اجتماعيّة وثقافيّة في ذلك المجتمع، ومحاولةً للوقوف على التقنيات اللغويّة التي حقّق بها النص مقاصده وأغراضه، وكلّ ذلك في ضوء السياق التداولي الذي أنتج فيه.

ثانياً: استراتيجيات الوهلة الأولى ومقاصد الخطاب

يمثّل المتلقي أبرز العناصر التي تضبط إيقاع جمل المفتتح وشكلها ومضمونها وفاعليّتها ونجاحها؛ فالمفتتح أوّل جزءٍ يلامسُ سمعَ المتلقي، ويصنع انطباعَه الأوّل عن الرسالة اللغوية كلها، يقول أبو هلال العسكري:" وإذا كان الابتداء حسناً بديعاً، ومليحاً رشيقاً، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام".[5] ويقول ابن رشيق:" إنّ الشعرَ قفلٌ أوّله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجوّد ابتداء شعره فإنّه أوّل ما يقرع السمع، وبه يستدلّ على ما عنده من أوّل

---

[1] الميداني، مجمع الأمثال، 2 /143.

[2] الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت 471 هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني/ القاهرة ودار المدني بجدة، ط3، 1992، ص44.

[3] Van Dijk.T.A., Text and Context, p.41

[4] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص55.

[5] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت395 هـ)، كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، ص496.

وهلة"،[1] ويضيف في موضع آخر :" إنّ حُسْنَ الافتتاح داعيةُ الانشراح ومطيةُ النجاح".[2] ويذكر ابن قيّم الجوزيّة عدداً من وظائف المفتتح يقول: "إنّ حسن المطالع والمَبَادي دليلٌ على جودة البيان، وبلوغ المعاني إلى الأذهان، فإنّه أوّل شيءٍ يدخل الأذن، وأوّل معنى يصل إلى القلب، وأوّل ميدان يجول فيه تدبر العقل"،[3] وبهذا تؤدّي جملة المفتتح عدداً من الوظائف النصيّة والتداوليّة والنفسيّة والعقليّة؛ فهي تعمل على انفتاح النص للمتلقي، وتحرك انفعالاته وعواطفه تجاه مضمون الرسالة، وتدفعه للتدبّر فيما يطرحه هذا النص من رؤى وأفكار؛ وتكون جودة الابتداء بهذا من أهمّ أسباب نجاح الرسالة اللغوية كلّها وتحقيق أغراضها.

وقد كان مُفْتَتَحُ أمامةَ مطيّةَ نجاحِ رسالتها؛ فالوصيّة تبدأ بالنداء بـ "اي"؛ و"أي" تستعمل لنداء القريب، والقرب هنا له سمْتٌ مختلف؛ إذ فضلاً عن القرب المعنوي بين أمٍ نبيلةٍ شريفةٍ وابنتها، لدينا قربٌ آخر تَوَلّدَ عن السياق الخاص للوصيّة وهو ظرف الفراق والوداع؛ حيث ستغادر البنيّة منزل أبويها. وللنداء هنا وظيفتان:

الأولى: وَضْعُ المخاطبة في بؤرة الموقف الكلامي؛ فلها يوجّه الكلام، وإليها تنجز هذه الرسالة اللغوية، وهي المفرّدة بالحديث، والكلام خاص بها وحدها وليس لغيرها؛ وبذا تَضمَن المرسلة أن تنال الاهتمام الكامل من المتلقية؛ فتتوجه بكل حواسّها ومشاعرها لتستمع إلى هذه الرسالة الموجّهة إليها وحدها.

والثانية: استجاشة المتلقية لتتفاعل مع مضمون الرسالة اللغوية، وتستجيب لمقتضياتها استجابة إيجابية.

ثم يأتي المنادى بلفظ التصغير "بنيّة"، وفيه تحبّبٌ واقترابٌ، وإشعارٌ للعروس بأنّها ما زالت مفتقرةً إلى أمّها بالوصيّة والتنبيه، وربما كان "لِتَجْتَذِبَها وتُشْعِرَها بأنها صغيرة ليس لديها خبرة أمّها، وليس هناك أحرص من الأم على مصلحة ابنتها"، (4) وربّما كان تحريكاً لعاطفة خاصة فريدة بين البنت وأمها. ويبدو التصغير وعاءً تركيبياً مناسباً لمثل هذه التقنية اللغوية العاطفية، إن جاز التعبير، وفعالية التصغير في سياقه المناسب لا يعدلها أيُّ تركيب آخر؛ إذ إنّ له وقعاً محبباً في النفس في سياق التودد وإظهار المشاعر.

وتضافر أسلوب النداء بـ "أي" دون غيرها من أدوات النداء مع أسلوب التصغير لاختزال المسافة بين المرسلة والمتلقية إلى مسافة صفر تقريباً؛ فالكلمات تتهادى بعدهما برفق ولين وسرعة من القلب إلى القلب، وقد تهيّأت الموصى إليها بكل حواسها للاستماع إلى وصيّة أُمّها بعد هذه الاستجاشة اللطيفة: "أي بنيّة". ويعدُّ أسلوبا النداء والتصغير في فواتح الوصايا من أهمّ الوسائل اللغوية التي تترجم الاستراتيجيّة التضامنيّة. إنّ هذه المقدّمة جاءت "لتشدّ انتباه البنيّة إلى أهمية ما سيُلقى عليها، ولتبيّنَ حاجة الإنسان إلى خبرات الآخرين، لا سيّما من تربطهم به

---

[1] ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، (ت456 هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1988، ج389/1.

[2] المصدر السابق، ج1/ص388.

[3] ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (ت 751 هـ)، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ط1، مكتبة المتنبي، القاهرة، بلا تاريخ، ص155.

[4] مصطفى، أحمد أمين، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ،1990، ص12.

صلات وثيقة كالأبوين"،[1] ثم كررت النداء بالتصغير لتأكيد التحبب ولجذب المخاطبة لسماع النصح والتوجيه.

ومهّدتْ المرسلة لوصاياها بثلاث عبارات؛ جاءت كلّ عبارة منها في دفقة كاملة؛ أمّا العبارة الأولى فهي فاتحة الوصيّة، وقوامها فكرة أنّ الوصيّة ضرورة لا يمكن لأحد أن يستغني عنها مهما بلغ كمالاً، والعبارة الثانية قوامها فكرة أنّ الزواج سنّة الوجود؛ فالرجال خلقوا للنساء والنساء خلقن لهم، والعبارة الثالثة وَصْفٌ للتغيير الذي ستتعرّض له المرأة بالزواج، وكيف ستعالج المرأة هذا التغيير، ثم تبدأ وصاياها بالتتابع بعد ذلك. وبدأت عباراتها الثلاث بـ "أي بنيّة"، وتأخذ العبارتان الأولى والثانية شكلاً متناظراً وتأتي الثالثة استثماراً لهما.

جاءت العبارة التمهيديّة الأولى بعد الاستجاشة الندائيّة "أي بنية" مباشرة بصيغة جملة خبريّة مؤكّدة مقطوعة بـ "لو" الشرطية، ثم أتْبَعَتْها باستدراكٍ لطيفٍ وقاعدة عامّة لا تتبدّل: "إن الوصيّة لو تُرِكَتْ لعقلٍ وأدبٍ أو مكرمةٍ في حسبٍ لَتَرَكْتُ ذلك منكِ، ولَزَوِيْتُهُ عنكِ، ولكنّ الوصيّةَ تذكرةٌ للعاقل ومَنْبَهَةٌ للغافلِ". أمّا التوكيد؛ فهو إشعار باليقين مما تقول، وهو ما يبعث في نفس المتلقية ثقةً فوق ثقة بما تقول أمّها، والمعنى الباطن للجملة هو: (أنّ الوصيّة لا تُتْرَكُ أبداً ؛فهي تذكرة للعاقل ومنبهة للغافل) ،لكنّها لم تُرِدْ لجملتها أن تأتيَ على هذا النحو المباشر؛ فقطعتها بأسلوب الشرط الامتناعي بـ(لو)، و(لو) تدل على ثلاثة أمور في جملتي الشرط وجوابه: "عقد السببيّة والمسببيّة، وكونهما في الماضي، وامتناع الشرط والجواب"؛[2] فامتناع الترك من الأم مسبب عن امتناع الترك مطلقاً للأسباب المذكورة في العبارة، وهي دالة على تقييد الشرطيّة بالزمن الماضي، أما الامتناع فهو هنا للشرط وجوابه جميعاً؛ فـَ (لو) حرف يقتضي في الماضي امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه. ثم قطعت الشرط بالاستدراك بـ (لكنّ) المشددة؛ التي يصطحب فيها "معنى التوكيد والاستدراك"،[3] أما التوكيد فقد أكدت ما أفادته (لو) من الامتناع، وأما الاستدراك فهو يدفع ما يُتوهّم ثبوته؛ وبذا اشتمل الجزء الأول من عبارتها على الأبنية الدلالية الآتية التي جاءت متتابعة ومتراكمة معاً:

- إنّ الوصيّة لا تترك في مثل هذا الظرف (الزواج) أبداً.
- لو افترضنا جدلاً أن الوصيّة قد تترك في حالات خاصّة جدّا فإن هذه الحالات هي:
  - لصاحب العقل الكامل.
  - لصاحب الأدب الكامل.
  - لصاحب المكرمات والأصل العريق والحسب النبيل.

وقد جَمَعَتْ ذلك كلّه في قولها: "إنّ الوصيّة لو تُرِكَتْ لعقلٍ وأدبٍ أو مكرمةٍ في حسب"، ثمّ يأتي جواب الشرط الامتناعي: "لَتَرَكْتُ ذلك منكِ ولَزَوِيْتُهُ عنكِ"؛ والمراد: إنّك تمتلكين هذه الأمور جميعاً؛ فأنتِ صاحبةُ عقلٍ كاملٍ، وأدبٍ متفرّدٍ، وأنتِ صاحبةُ الأصل الكريم والحسب العريق (مع ما نعرفه عن أسرتها ووضعها الاجتماعي ورفعة حسبها وكمال أدبها مما أورده الإخباريون)، ولو تُرِكَتْ الوصيّة لأحد لأنه يمتاز بهذه المواصفات على وجه الكمال لكنت أنت هذا الأحد، لكنّ تركَ الوصيّة ممتنعٌ أبداً وفي كلّ حال.

---

[1] أحمد يوسف خليفة، قراءة في أدب الوصايا، ص28.

[2] ابن هشام الأنصاري، جمال الدين (ت761 هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، حققه وعلق عليه: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله وراجعه سعيد الأفغاني، ط1، دار الفكر، بيروت، 1992، 344.

[3] المصدر السابق، ص383.

ويلاحظ أنّ جواب الشرط جاء مشاكلاً لفعل الشرط: (لو تُرِكَتْ/ لَتَرَكْتُ)، وهو أشد وقعاً، ويعني: لا تركَ للوصية أبداً لا ابتداءً ولا انتهاءً. ثم أتبعت جواب الشرط بجملة معطوفة على الأولى مساوية لها تركيبياً، ومعزّزة لها في اتجاه الدلالة: "ولَزَوِيْتُهُ عنكِ"؛ فلم تكتفِ بجوابِ شرطِ مفرد، وإنما بجواب شرط مزدوج، وبجملتين بينهما عطف: "لتركْتُ ذلك منكِ ولزويْتُهُ عنكِ"، وهو أشدُّ تأثيراً في الإقناع.

وإذا كانت الوصيّة للآخرين لإتمامِ عقلٍ أو تتميمِ أدبٍ أو ملءِ فراغٍ أحدثهُ الحسبُ المتواضع؛ فإنه للعاقلِ تذكرة وللغافل تنبيه، ويأتي الاستدراك ملخّصاً ما سبق: "ولكنّ الوصيّة تذكِرةٌ للعاقلِ ومَنْبَهَةٌ للغافل"؛ وإذن فهو تسوير لضرورة الوصية بصورة غير مباشرة، والابتعاد عن المباشرة هنا أدعى في التأثير، وأكثر احتراماً لعقل المتلقية ومدعاةٌ لثقتها. وهذه العبارة التمهيدية كانت أساسية في التوطئة والتهيئة؛ فأصبحت الفتاة مستعدّةً لسماع ما يذكّرها إنْ نسيتْ، وما ينبّهها إنْ غَفَلَتْ، وقد حقّقتْ هذه العبارة عدّة أغراض في آن واحدٍ:

- فقد نَوَّهتْ (*) بالفتاة، وامْتَدَحَتْ عقلَها وأدبها وكريم حسبها، والامتداحُ يقرّب المتلقي من المرسل ويهيئه للقبول.
- وركّزت على ضرورة الوصيّة لكل أحدٍ وفي كلّ حالٍ في مسألة الزواج؛ والمرسلة بذلك تعطي مسوّغاً واضحاً لنفسها لإلقاء وصيّتها في ضوء هذه الضرورة.
- وحدّدت الوظيفة التي يمكن أنْ تقومَ بها الوصيّة في حال ظنّت الملتقية أنّ أدبها أو عقلها أو حسبها أو كلّ ذلك قد يجعلها مستغنيةً عنها؛ فهي تذكرةٌ للعاقلِ وتنبيهٌ للغافلِ.

وأسهمَ تساوي الجمل هُنا وقصرها والسجعات الخفيفة فيها في إحداث الأثر المطلوب؛ فجاءت كالطرقات المتتالية السريعة في اتجاه واحد، كما في (أدب/ وحسب)، و(لتَرَكْتُ/ لزَوَيْتُ)، و(العاقل/ الغافل)، و(تذكرة/ منبهة) و(منكِ/ عنكِ). كما أسهم الطباق بين (منكِ وعنكِ) في إحداثِ نوعٍ من الحركة والتأثير؛ فالتركُ منكِ والزويُ عنكِ، والمخاطبة هي بؤرة الخطاب، وبذا فهي تقبلُ نحو الوصيّة؛ لأن (لو) و(لكنْ) في الخطاب تخبرانها أنها العاقلة والأديبة والحسيبة الأصل محتاجة للوصية للاعتبارات التي ذكرتها أمّها.

ويلفت هنا أنها أشارت إلى الوصيّة بلفظة (ذلك): "لتركْتُ ذلك منكِ"، وأشارت إلى ابنتها بصورة مباشرة في ضمير الخطاب (منكِ/ عنكِ)، ولكن حين تحدّثت عن قاعدة ضرورة الوصيّة حتى لمن يظن أنه مستغنٍ عنها، أشارت إلى ابنتها عبر (أل) الجنسيّة:(العاقل/ كلّ عاقل)، و(الغافل/كل غافل)، وأهميّته أنّه يؤسّس لحالة عامّة تنطبق على أيّ أحد، وكأنّ العبارة صيغت لتكون قاعدة عامّة يمكن تعميمها دائماً، و(أل) الجنسيّة تكافئ (كل) كما هو معلوم؛ فيكون المعنى: الوصيّة تذكرةٌ لكلّ عاقل، وأنتِ عاقلة فهي تذكِرةٌ لكِ، والوصيّة مَنْبَهَةٌ لكلّ غافلٍ، والإنسان معرّضٌ للغفلة وأنتِ إنسانة وقد تتعرضين للغفلة فهي تنبيهٌ لكِ.

أمّا العبارة التمهيدية الثانية فتبدأ أيضاً بـ: "أي بنية"، وتتبع فيها الاستراتيجية ذاتها التي اتبعتها في عبارتها الأولى؛ إذ تطالعنا (إنّ) التوكيدية ذات الطابع الانتشاري الذي يغلّف العبارة جميعاً بعد النداء مباشرة؛ فهي استجاشة أوّلاً بالنداء والتصغير، ثم التقرير يأتي ثانياً: "أي بنيّة، إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها وشدّة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عن الزوج، ولكنْ للرجال خُلقَ النساءُ كما لهنّ خُلِقَ الرجالُ". ومرة أخرى تقطع المرسلة جملتها المؤكدّة بـ "لو" الشرطية، وهو خروج عن المباشرة في التقرير، وتقطع أيضاً الشرط بـ (لكنْ) الاستدراكية

(*) التنويه: هو التقريظ والامتداح. انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711 ه)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 1990، مادة (نوه).

المخففّة؛ لتكون إلى جانب الاستدراك أداة ابتداء أيضاً؛ فهي "إنْ وَلِيَها كلامٌ (أي جملة) حرف ابتداء لمجرد إفادة الاستدراك"، [1] أمّا التوكيد بـ(إنّ) فهو لفكرة أنّ المرأة لا تستغني عن الزوج أبداً، وأمّا الشرط الامتناعي بـ(لو) فهو لفرضيّة أنّ امرأةً يمكن أنْ تستغني عن الزوج، وأنّه إنْ حدث ذلك فسيكون للاعتبارات الآتية:

- غنى أبويها؛ فهي غير مفتقرة إلى مال زوجها.
- شدّة حاجتهما إليها؛ أي تعلقهما بها، وعدم رغبتهما في فراقها؛ فالعلاقة محبّة خالصة، وهي غير محتاجة لرجل ينقذها من وضعها العائلي المليء بالأسى بسبب رغبة الأهل في التخلّص منها.

فيكون المعنى أنّه قد تحقّق لك هذان الأمران؛ فإنْ كان أحدٌ على الإطلاق يمكن أن يستغني عن الزوج لتوافر هذه الاعتبارات فهو أنتِ. ثم يأتي الاستدراك ليقيم التوكيد على وجه القاعدة العامة:(لا تستغني المرأة عن الزوج بحال لأنّ النساء خلقن للرجال، كما أن الرجال خلقوا للنساء). لكنّ هذه الاستراتيجية ثلاثية المراحل في العبارة الثانية أعمق تأثيراً، وفيها تثبيت تراكمي عميق للفكرة؛ فالتأكيد زرعٌ لليقين بأنّ المرأة لا تستغني عن الزوج، وهو جوابٌ قاطعٌ على افتراضٍ قد يدور في ذهن المتلقية أنّها قد تستغني عن الزواج بغنى أبويها وشدّة حاجتهما إليها، وعبّرت المرسلة عن هذا الخاطر الذي يدور في ذهن المتلقية بأسلوب الشرط الامتناعي بـ "لو".

ويلاحظ أن صيغة فعل الشرط وفاعله جاءت عامة بـ(أل) الجنسية التي اقترنت بالفاعل لتفيد التعميم: ("المرأة"/ كل امرأة)، لكنّ جواب الشرط كان خاصّاً بالمخاطبَةِ وحدها: "كنتِ...": أنتِ وحدك تتصدّرين قائمة الاستغناء عن الزوج بهذه بما توافر لك دون غيرك، وتكفّل اسم التفضيل "أغنى" مضافاً إلى الناس، كل الناس، وأل الجنسيّة في كلمة (الناس) بهذا المعنى.

أما المرحلة الثالثة في هذه العبارة فجاءت إتماماً للتوكيد الأوّل، ولكنْ على سبيل الاستدراك بـ "لكنْ" المخفّفة؛ ليقول الخطاب مُكْمِلاً: إنه لا امرأة تستغني عن الزوج حتى لو تمتّعت بكلّ الاعتبارات المطلوبة لذلك (المال وافتقار الأهل إليها)؛ لأنّ الأمر يعدو كونه احتياجاتٍ ماديّة حسب، إنه سنّة من سنن الوجود؛ فالزوجيّة نظام الكون جميعاً. وتكفّل بهذا المعنى تَضافُرُ أكثر من عنصر لغوي، أوّلها: (لكنْ) المخففة التي تدلّ على الاستدراك والابتداء معاً؛ استدراكٌ على فكرة أنّ المرأة قد تستغني عن الزوج، وابتداء بالتقرير لقاعدة عامة أنّ الرجال خلقوا للنساء والنساء خلقن للرجال. وثانيها: (أل) الجنسية في كلمتي (النساء) و(الرجال)؛ أي كلّ النساء وكلّ الرجال. وثالثها الفعل (خلق) في المرتين، والخلق هو أصل الوضع، وهذه العناصر متضافرة معاً تكفّلت ببيان أنّ الأمر سنّة جارية وقاعدة مطّردة؛ فالأمر الصواب أن نجريَ مع السننِ وألاّ نخالفها، وأنْ نحقّقَ السننَ بنا على وجهها؛ لأنّها عامّة وقارّة وتتّسق مع نظام الوجود.

ويُلاحظُ اشتمال الجملة الثالثة التي غلفّها الاستدراك على تقديمٍ وتأخيرٍ؛ فقد قُدِّم قيد الجر النحوي "للرجال"، وترتيب الجملة أصلاً: "خلق النساء للرجال"، وكذا في الجملة المعطوفة عليها؛ فقد قدّم قيد الجر "لهن"، وأصل الجملة: "خلق الرجال لهن"، ومردّ التقديم في الحالين أن يُجْعَل الجنسان سواءً في الاحتياج. ويُلاحظ أنّها قدّمت النساء في مسألة الخلق في القاعدة العامة؛ فقد قدّمت جملة "خلق النساء للرجال" على جملة "خلق الرجال للنساء"؛ وذلك أنّ المخاطبة من النساء؛ فهي تريد أن ترى مكانها في هذه القاعدة العامة، ولكنّها قدّمت قيد الجر "للرجال" في

[1] ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ص385.

الجملة الأولى؛ فالرجل هو محور حركة المرأة، وهو الأصل في تصوّر العرب للزوجيّة، وفي فلكه تدور تفاصيل الحياة الزوجية كلها، وقدّمت (لهن) للاعتبار ذاته، لكي تُبْقِيَ للمخاطبة المرأة مكانها في هذه القاعدة.

ويُلاحظُ أيضاً أنّها عبّرت عن الرجال في الجملتين بالاسم الظاهر (للرجال/ الرجال)، أما المرأة فعبّرت عنها بالاسم الظاهر تارة وبالضمير تارة أخرى: (النساء/ لهن)؛ وذلك متّصل بأنّ المخاطبة هي من النساء، والعرب تستغني عن تكرار الاسم الظاهر بضميره، ولا يصحّ أنْ يُفْعلَ ذلك بالرجل لأنه ليس المخاطب هنا، ولأنّه الحاضر دائماً؛ فهو مركز الحياة الزوجية، فينبغي ألا يكون ضميراً غائباً وإنما اسماً ظاهراً دائماً. ويتصل بهذا الأمر استخدام حرف الجر (اللام) في القيد: (للرجال/ لهن)؛ لأن اللام تفيد انتهاء الغاية، وغاية المرأة تنتهي مع الرجل وغاية الرجل تنتهي مع المرأة، وهذه هي القاعدة العامة في الوجود.

أمّا العبارة التمهيديّة الثالثة فقد بدأت أيضاً بتكرار "أي بنية"، والعبارة متصلة بالتغيير الذي ستقبل عليه البنيّة، وما الذي عليها فعله إزاء ذلك، وكيف يمكنها امتصاص صدمة التغيير والتكيف مع أحوالها الجديدة بنجاح ودون خسارات تذكر: "إنك فارقت الحواء الذي منه خرجت، والوكر الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك ملكاً، فكوني له أمةً يكن لك عبداً، واحفظي عني خصالاً عشراً تكن لك دركاً وذكراً". (*)

ويُلاحظُ اختلاف الصياغة في هذه العبارة عن العبارتين السابقتين؛ ففيما سبق اقترن الإخبار بالشرط، والاستدراك بالابتداء، لكنّ الإخبار المؤكّد هنا هو سيّد الموقف. ومن جانب آخر فإنّ العبارتين السابقتين خلتا من أي أمر أو نهي أو طلب، وكأنما تدرّجت المرسلة في تقرير الحقائق ثم أتبعتها بالمطالب والأوامر والنواهي، وجاءت العبارة الثالثة أو الحقيقة الثالثة لتهيئ العروس الصغيرة لهذه الوصايا وهذه الأوامر والنواهي. وقوام هذه الحقيقة أنّ هذه العروس مقبلةٌ على تغيير كبير وشامل يتمثّل في الحقائق الآتية:

- أنّك فارقت الحِواءَ الذي منه خرجتِ.
- أنّك فارقت الوَكرَ الذي فيه درجتِ.
- أنّك انتقلت من المكان الذي تعرفينه بكل تفاصيله وتألفينه بكل جوارحك إلى قرين لم تألفيه ولم تعرفيه.
- أنّ هذا القرين المجهول التفاصيل بالنسبة إليك قد أصبح بعقده عليك ملكاً متوّجاً.

إن التعبير عن هذا التغيير استدعى تغيير الأسلوب بصورة واضحة، والخطاب أخذ يميل نحو القوّة والصلابة والحزم؛ فالتغيير الذي سيحدث في حياة المخاطبة سيكون جديّاً وجذريّاً وكاملاً وشاملاً ودائماً، وليس تغييراً جزئيّاً أو نسبيّاً أو مرحليّاً أو مؤقّتاً. والتوكيد هنا واضح ليس مقطوعاً بأيّ أسلوب آخر، واستخدمت فيه المرسلة أداتين من أدوات التوكيد: (إنّ) و(قد)، و(إنّ) انتشاريّة تغلّف العبارة كلها بالتوكيد لكنّ (قد) تغلّف الأفعال فقط: "قد فارقت". وأداتا التوكيد ضروريتان هنا؛ لأنّ الحقيقة المعروضة هنا هي أمّ الحقائق في الحياة الزوجيّة، وهي حقيقة التغيير.

(*) رواية العقد الفريد لهذه العبارة:" أي بنية إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت". ابن عبد ربه، العقد الفريد، 7/89-90. وفي رواية المستطرف: " أي بنية، إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت، إلى رجلٍ لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه؛ فكوني له أمة يكن لك عبداً". الأبشيهي، المستطرف، 479/1. وفي رواية التيفاشي التي نقلها التجاني:" إنك فارقت الوطن الذي منه خرجت، وخلّفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، وأصبح بملكه إياكِ ملكاً عليك؛ فكوني له أمة يكن لك عبداً". التجاني، تحفة العروس، ص121.

إنّ العبارتين الأولى والثانية اشتملتا على أسلوب الشرط، وإنْ كان الشرط امتناعياً، والشرطُ يوفّر خياراتٍ للمرأة:

ففي العبارة الأولى: خيار الوصية و خيار ترك الوصية

وفي العبارة الثانية: خيار الزواج و خيار الاستغناء عن الزواج

أمّا العبارة الثالثة فخلت من أسلوب الشرط، وبذا خلت من الاختيارات، وأصبحت البنت أمام واقع حاصل لا مفر منه؛ حيث تلاشت الاختيارات وبدأت الإجراءات والقرارات. وعزّز هذه الفكرة اقتران (قد) بالفعل الماضي "إنك قد فارقت"، مع أنها لم تفارق بيتها بعد وقت الوصيّة، وكأنّ الأم بدأت تضع ابنتها في الواقع الجديد لتدرك التغيير الذي أخذ يدخل حياتها فيقلبها رأساً على عقب، ولتهيئّها لصعوبة ما هي مقبلة عليه.

واستخدمت المرسلة مفرداتٍ خاصة في التعبير عن هذا التغيير: الحواء ثم الوكر في وصف الحياة ما قبل التغيير، أما الحياة بعد الزواج فعبّرت عنها بالوكر، ووصفت هذا الوكر بأنه "لم تعرفيه"، أما رفيقها الدائم في هذا الوكر فقد وصفته لها بالقرين الذي لم تألفيه. إنّ "استعارة العش[*] لبيت الأبوّة، واستعارة الوكر لبيت الزوجية جاءت مكثّفة لقيم الحياتين ومحاورهما المختلفة".[1] إنّ اختيار الألفاظ في الخطاب و"الانتقاء بينها وتبني مرادفات بعينها ليست قضية شكلية، بل هو ترجمة دائماً لمقصدية حجاجية محددة، ولشروط المناسبة المقامية"؛[2] إذ "بقدر حاجة المستمع تكون صيغة القول"[3] كما يقول الجاحظ؛ فالوكر والعشّ والحواء هي إشاريات تربط المخاطبة بذاكرة الميلاد والطفولة والنشوء والصبا، وهي في الآن ذاته بنْياتٌ رمزية تنقلها إلى فضاءات المستقبل المجهول التفاصيل بصورة تجعله مقبولاً مستحباً؛ فالعش كناية عن صغر السن والبراءة أما الوكر فكناية عن القوة والصلابة.

وجاءت العبارة الثالثة في ثماني جمل بعد عبارة النداء؛ أربع جمل منها تمثِّل حالة الانتقال من مرحلة إلى مرحلة، ثم تأتي الفاء الترتيبيّة التعقيبيّة السريعة فاصلة بين هذه الجمل الأربع وبين الأربع التالية التي تمثِّل الواقع الجديد حاضراً بكلّ مقتضياته، ومعه الأمر الجامع الذي يمثّل الوصفة الناجحة التي تكفل للبنت الانتقال الآمن الناجح بين المرحلتين.

أمّا القسم الأول الذي يمثّل حالة الانتقال، فهو: "إنك قد فارقت الحواء الذي منه خرجت، والوكر الذي منه درجت، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه". وهذا القسم بدوره ينقسم إلى جزأين: الأول يمثِّل مرحلة ما قبل الزواج أو ما قبل التغيير ويعبِّر عنه قولها: "إنك قد فارقت الحواء الذي منه خرجت، والوكر الذي منه درجت". والجزء الثاني يمثل مرحلة ما بعد الزواج، ويعبّر عنه قولها: "إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه". وعبّرت المرسلة عن الجزء الأول بجملتين مفتاحهما حرف الجر (من) الذي يفيد هنا ابتداء الغاية والظرفية معاً؛ فهو بمعنى (في) في وجه جلّي من وجوهها؛ فالمبتدأ (نقطة الابتداء) هو حِواءٌ خرجت منه هذه الصغيرة، والحواء "اسم المكان الذي يحوي الشيء أي يجمعه ويضمه"،[4] وقد أطلقت الأم على المكان الذي ولدت

---

[*] وردت لفظة "العش" في رواية العقد الفريد لهذا الجزء من الوصية وفيه: "أي بنية، إنك فارقت بيتك الذي فيه خرجت وعشك الذي فيه درجت". انظر: العقد الفريد،7/89-90.

[1] أحمد يوسف خليفة، قراءة في أدب الوصايا، ص28.

[2] عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع، ص90.

[3] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ) البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1979، ج1/ 76.

[4] ابن منظور، لسان العرب، مادة(حوا).

فيه الصغيرة وربيت فيه سنيّها الأولى "الحواء"، وهو محلّى بأل العهديّة التي تحيل إلى المعهود في مخيلة البنت/ العروس من تداعيات الميلاد والمهد والطفولة وذكرياتها جميعاً، ثم تدرّجت بها إلى مرحلة تالية من عمرها، وهي المرحلة التي وصفتها بقولها: "والوكر الذي فيه درجت"، والوكر: "العش حيثما كان في جبل أو شجر"،[1] وهو يمثّل مرحلة متقدّمة من عمر الصغيرة، وهذا الموطن لها هو كل دنياها وكل عالمها، وفيه دَرَجَتْ؛ أي انتقلت بالتدرّج من مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى حتى بلغت أشدّها؛ فالدرجة :"المنزلة، ويقال للصبي إذا دبّ وحبا واشتدّ وأخذ في الحركة دَرَجَ،... وهو دارج،...و درّجتُ العليلَ تدريجاً إذا أطعمته شيئاً قليلاً، وذلك إذا نَقِهَ، حتى يتدّرج إلى غاية أكله كما كان قبل العلّة درجة درجة"؛[2] فالمرحلة الأولى هي مرحلة (الحواء)، وهي ضمٌّ واحتواء كاملان، ثم انتقلت إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة (الوكر) أو الدرْج، وفيها تدرّج حتى البلوغ والاكتمال.

وعبّرت الأم عن انتقال ابنتها من مرحلة الحواء الأولى (الميلاد والطفولة) إلى مرحلة الوكر أو (النضج والاكتمال) بالفعلين: (خرجت ودرجت)، وكلاهما يعبّر عن انتقال طبيعي متدرّج؛ فالخروج والتدرّج كأنما هما انتقال طبيعي من غرفة إلى غرفة، وليس انتقالاً شاملاً وكاملاً وجذريّاً، أمّا الانتقال من هذا العالم الصغير إلى العالم المجهول بعد الزواج فعبّرت عنه بالفعل (فارقت)، وهو يحيط بكل هذه المرحلة مقترناً بـ "إن" التوكيدية و "قد" المحققة: "إنك قد فارقت". والفراق يختلف نهائياً عن الخروج والدرْج؛ فالخروج يليه دخول، والدرج انتقال طبيعي في العمر والملامح والنضج والاهتمامات، لكنّه ليس انسلاخاً بالمرة، أمّا الفراق فهو "خلاف التجمّع والضم، حتى اختلف العلماء: هل الافتراق للأبدان أم الآراء أم غيرها؟ وأكثرهم أنّ الافتراق يكون للأبدان"،[3] والفراق كذلك "المباينة والاختلاف، وتفارق القوم: فارق بعضهم بعضاً، وفارق فلان امرأته: باينها".[4] ويفهم من هذه المادة اللغوية أن المرأةَ مقبلةٌ على ترك المكان الذي ضمّتها جوانحه بكلّ حب وتدرّجت فيه، وأنّها ستتركه ببدنها ووجدانها، وأنّ بين المكانين والمرحلتين مباينةً وافتراقاً واختلافاً؛ **وإذا** كان الوليد يحفظ الحواء بكلّ تفاصيله، والطائر يعرف الوكر بكل دقائقه؛ ففيه يضع بيضه وإليه تأوي فراخه؛ فهو رمز للأمن من جهة، وللألفة من جهة أخرى، وللطمأنينة الناجمة عن المعرفة من جهة ثالثة؛ فهو مستودعٌ معروف التفاصيل بكل دقائقه وتفاصيله؛ **فإنّ** المكان الذي ستنتقل إليه البنيّة له شأن آخر.

الألفة والمعرفة إذن هما السر في تعلقّ كلّ امرئ ببيئته، أما المكان الذي ستنتقل إليه الفتاة، والعالَمُ الذي ستصير إليه فعنوانه انعدام هاتين الخصيصتين: "إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه"، وهذه هي مرحلة ما بعد الزواج أو الجزء الثاني من القسم الأوّل، ومفتاحها حرف الجر "إلى"، وكلّ ما في هذا الجزء هو خلاف ما وَصَفَتْ به المرحلة السابقة؛ فالمكان أصبح مجهول التفاصيل "لم تعرفيه"، والمعرفة هي أداتنا في الأمن والاستقرار، وهذا يرتّب على الفتاة رحلة في المجهول، واستكشافاً جاداً لمعرفة التفاصيل. أمّا الألفة فهي أداتنا في المحبّة والطمأنينة؛ فلا يمكن للمرء أنْ يحبّ ما لم يألفْ، ولا يمكنه أن يطمئنَّ لما لم يألفْ.

وأصرّت الأمُّ على تسمية المكان الجديد بالوكر أيضاً لتقول لها: إنّ هذا هو عشّها الجديد الذي سيصبح مملكتها، والذي ستنتمي إليه بكليّتها، أمّا سيّد هذه المملكة فهو هذا القرين الذي لم تألفه ولم تعرف طبائعه وسلوكه وعاداته. وسارعت الأم إلى استخدام حرف الترتيب والتعقيب

---

[1] المصدر السابق، مادة(وكر).
[2] المصدر السابق، مادة (درج).
[3] المصدر السابق، مادة (فرق).
[4] المصدر السابق، مادة (فرق).

(الفاء) في انتقالها إلى القسم الثاني من العبارة الثالثة في هذا النص، لتقول لابنتها إنّ تداعيات التغيير بعد هذا الانتقال ستتوالى تباعاً وبصورة متسارعة وجذريّة وصعبة، وأنّ الأمر ليس مجرد انتقال (من - إلى)، بل إن فيه ضرباً من التحوّل عبّرت عنه الكلمة (أصبح) المقرونة بالفاء: "فأصبح بملكه عليك ملكاً"، و"أصبح" بمعنى (صار)، والصيرورة تفيد التحوّل، وكأنّها تقول لها: إنّ الأمور هنا ستكون مختلفة جداً.

لقد غلّفت المُرسلة خطابها حتى ما قبل نهاية الدفقة الثالثة بعنصرين لغويين هما: النداء المقترن بالتصغير من جهة، والتوكيد من جهة أخرى، وخلا خطابها إلى هذه اللحظة من أي أمر أو نهي. ويسهم النداء مع التصغير-فضلاً عن وظائفهما السابقة- في تخفيف ثِقَلَ الأوامرِ والنواهي التي ستتوالى في الجزء التالي من الوصية. أمّا التوكيد فيقوم بدوره هو أيضاً في زرع فكرة اليقين لتوليد الثقة المطلوبة لضمان الاستجابة والتأثر الإيجابي مع ما تطرحه الوصيّة، وكلّ ذلك يهيئ لقبول مجموعة التوجيهات التي انداحت تباعاً في الوصية، وجاءت على شكل مجموعة من الأوامر والنواهي، وهما ثقيلان على النفس كما هو معلوم.

إلى هذه النقطة تتوقف المرسلة عن سرد الحقائق الرئيسة التي ستتكئ عليها في ذكر الوصايا والمطالب، ويمكن تسمية هذه التقنية الخطابية التي اتبعتها المرسلة بـ " التقرير المتدرّج"، وهي تعتمد على التدرّج في سرد الحقائق بصورة تراكمية وصولاً إلى الحقيقة الرئيسة، وهي في حالتنا مسألة التغيير الذي ستتعرض له المرأة عند الزواج، وما ينبغي عليها فعله لاستيعاب هذا التغيير، وهذه التقنية مرتبطة بالغرض من هذا الجزء من الخطاب، وهو استثارة المتلقية وتوجيه تفكيرها لمعرفة كيفية التصرف الصحيح إزاء ذلك التغيير.

إنّ هذه الحقائق المتتالية بهذه اللغة الواضحة ترتّب على المتلقية مزيداً من الانتباه والاستماع الذي يدفعها إلى التساؤل حول ما الذي يمكنها فعله إزاء هذا التغيير الذي يشبه الزلزال؛ فيأتي الجواب سريعاً: "فكوني له أَمَةً يكن لك عبداً". إن المَلِكَ لا يجبُ معه إلا كمالُ الطاعة؛ الطاعة المطلقة وحدها يمكن أن تنفع في مثل هذه العلاقة، وعبّرت عن الطاعة المطلقة بلفظة "أَمَة"، لكنّها طاعةٌ انعكاسيةٌ ومرتبطة وتبادلية؛ ذلك أنّها سريعة الثمر؛ وطاعتك المطلقة سرعان ما ستحوّلك إلى "ملكة" يكون مليكك فيها عبداً لك؛ فالأَمَةُ ملكة والملك عبدٌ. والفاء تخبرها أنّ كمال الطاعة هو أداتها الأولى والسريعة، ومنهجها الواضح المباشر في حياتها القابلة: "فكوني"، وهو أوّل فعل أمر في النص، وجاء بلفظ الكينونة؛ لأنّ الطاعة هنا ليست إجراءً عارضاً بل منهجاً متّبعاً قائماً بصورة دائمة. وهذه الصيغة الترابطية المنعكسة تجعل المتلقية تحتمل لفظة "أَمَةٍ" على قسوتِها، وهي أم إياس التي رَبِيَتْ في بيت الحسب والشرف؛ فجواب الأمر حاضر مباشر: (كوني/ يكن)، وتبادل الضمائر يجعل العملية بذلاً مضمون الثمن:

كوني (أنتِ المخاطبة/ الأَمَة) / له (هو/ الملك الغائب)

يكن (هو/ الغائب العبد) / لك (أنتِ المخاطبةُ/ الملكة)

وفي رواية أخرى لهذه العبارة: "فأصبح بملكه إياك عليك مليكاً، فكوني له أَمَةً يكن لك عبداً وشيكاً"؛ [1] أي إنّ تحوّله سيكون سريعاً مباشراً. ويمكن تسمية هذه التقنية الخطابية التي اتبعتها الأم في هذا الجزء من الوصية بـ "الانعكاس المباشر والثمرة الحاضرة"؛ وذلك أنّها تذكر الانعكاس السريع للتوجيه المطلوب، والفائدة المتوخّاة من كل خصلة تطلبها؛ فما تقدّمه الصبيّة باليمين ستحصده مضاعفاً بالشمال، وكلّ تعبٍ تبذله في سبيل إرضاء زوجها إنّما ينعكس عليها بشكل مباشر وسريع، وهذا الأمر مما يحفّز الفتاة للاستجابة. إنّها تقنيةٌ مثيرةٌ من تقنيات الخطاب

[1] هذه رواية الوشاء في الفاضل في صفة الأدب الكامل، ص223- 224.

تجعل استجابة المتلقية في أحسن تجلياتها، وتهيئّها من جديد للاستماع إلى باقي التفاصيل. "إنّ هذه الجملة القصيرة المركّزة ذات النظرة البعيدة قد وردت في أكثر وصايا الموصين، ولم تختلف عنها في جاهلية ولا إسلام"، [1] بل ربما وجدنا الوالد يردّدها لبناته جميعاً، كما هو الحال مع الزبرقان بن بدر الذي كان إذا زوّج ابنةً له دنا من خدرها وأوصاها بجملة واحدة فقط، يقول فيها: "أتسمعين؟ كوني له أمَةً يكنْ لك عبداً". [2]

ومن تجليات هذه التقنية أيضاً قولها في موضع آخر من النص في رواية من روايات الوصية: "وكوني أشدّ ما تكونين له إعظاماً يكن أشدّ ما يكون لك إكراماً، وأشدّ ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة".[3]ويعبّر أحد الباحثين عن هذه الفكرة بقوله: "وتجمع الوصيّة الارتباط بين القيمة والمنفعة أو الثمرة المرجوّة في ارتباط شرطي"،[4] مع ملاحظة أن البدء يكون دوماً من طرف المرأة ويكون الانعكاس تالياً من طرف الزوج، بما يرتّب عليها عبئاً دائماً بأن تكون هي المبادِرة التي تقوم بالخطوة الأولى في البذل والتقديم ونكران الذات، لكنّها تعلم في يقينها أنّها ستجد ثمر كلّ ذلك حاضراً تباعاً من طرفه.

ثالثاً: نحو الوصية

يفترض الجرجاني أنّ "النحو" هو الذي يعطي للنصوص سَمْتَها الخاص، وهو الذي يصف نظم الكلم في السياق بحسب الأغراض المختلفة للمرسلين؛ حيث إنّ المرسل يقتفي في نظمها(الكلم) "آثار المعاني وترتّبها على حسب ترتّب المعاني في النفس"؛[5] فليس النظم أو النحو ضمّ الكلم إلى بعضها "كيفما جاء واتفق، بل كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء...؛ مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض؛ حتى يكون لوضع كلٍ حيث وُضِع علّة تقتضي كونه هناك".[6] ووفق هذا الفهم فإنّ كلّ نوع من النصوص يقتضي نحواً معيناً؛ فللخبر نحوٌ، وللمثل نحوٌ، وللوصيّة نحوٌ،...، والوقوف على هذا النحو، وعلى الكيفيّة التي تعالقت بها الكلم في السياق ،هو أداتنا في الوصول إلى "معنى النص" الذي ترتّبت الكلم في النص اقتفاءً لأثره.

وفي هذا الجزء من البحث سنقف عند نحو الوصية في الجزء المتصل بالتوجيهات المباشرة التي وجّهتها المرسلة إلى ابنتها؛ فإنّها بعد أن ألقت وصيّتها الجامعة التي أَعُدُّها بؤرة الرسالة ومركزها: "كوني له أمَة يكنْ لكِ عبداً" عطفت عليها بالواو طلباً آخر: "واحفظي عني خصالاً عشراً تكن لك دركاً وذكراً". لقد قدّمت الأم/ المرسلة لابنتها ما تعتقد أنه الوصفة الفريدة إزاء كونه ملكاً بعقده عليها، أمّا إزاء القرين الذي لم تألفه فإنّ الخصال العشر، التي تتالت بعد ذلك، كفيلة بالوصول بالزواج إلى غاية النجاح، وعبّرت عن هذا بقولها: "تكن لكِ دركاً وذكراً". واختزنت كلمة "احفظي" مجموعة من الطاقات: اللغوية، والاجتماعية، والمعرفية؛ فهي تحيل على تجربة اجتماعية متكاملة، وعلى بيانات ومعارف تختزنها الأم وتريد بثها لابنتها. وأشار (سيمون ديك) إلى فكرة الطاقة المختزنة عند حديثه عن مجموعة الطاقات التي ينبغي توافرها

---

[1] الدليمي، جمهرة وصايا العرب، ج1/ص67.

[2] ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن محمد بن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، عيون الأخبار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ،1996، ج77/4.

[3] هذه الرواية في: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج223/3. والميداني، مجمع الأمثال، ج143/2.

[4] أحمد يوسف خليفة، قراءة في أدب الوصايا، ص49.

[5] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص49.

[6] المصدر السابق، ص49.

في كلام مستعمل اللغة حتى يتمكن من إقامة تواصل ناجح مع غيره، [1] وعبر هذه الطاقات لا يكون معنى "احفظي" أن تحفظ البنت بقلبها هذه الكلمات، بل أنْ تحوّلها إلى فعل دائم لتكون لها ذكراً ودركا.

والخصال العشر تأخذها الصبيّة عن أمِّها التي تصدر عن تجربة ناجحة في الزواج - كما يبدو- عبّرت عنها ياء المتكلم "احفظي عني"، وهي تجسيد للاستراتيجية التوجيهيّة التي تحكم هذا الضرب من الخطاب الذي تقدم فيه أمٌّ خلاصة تجربتها لابنتها المقبلة على الزواج. وهذه الاستراتيجية تقتضي أن يكون كلّ ما في النص منتقىً بدقة وحرص لتوجيه المتلقي وقيادته إلى وجهة واحدة في الخطاب هي الفكرة المراد الإقناع بها؛ فلا مجال للاعتباطيّة، ولا مكان للصدفة والاتفاق، بل "كلّ مفاصل الخطاب وكلّ دقائقه وأساليبه إنّما توجّه المتلقي إلى الوجهة المنشودة؛ فهو خطاب عملي لا يطمح إلى تفسير الفكرة أو الرأي حسب، بل إلى تغيير الموقف وتحديد السلوك". [2]

وهذه الخصال إنما هي وصايا تكميلية وتفصيلية للوصية الجامعة المتصلة بكمال الطاعة: "كوني له أمة"، وعواقبها جميعاً متّصلة بالبنت مباشرة؛ دلّ على ذلك ضمير الخطاب في (لكِ) في الجملة السابقة؛ فهذه الخصال هي سبيلها إلى إدراك شاطئ السلامة وبر السعادة والأمان: "دَرَكاً"، وهي سبيلها إلى التفوّق والذكر الحسن في حياتها المستقبلية "ذِكْراً". ثم توالت هذه الخصال العشر تباعاً، وأتبعتها بتوجيهين إضافيين، لعله بدا لها أنّهما ضروريان ولازمان، وعلى النحو الآتي:

1.المعاشرة له بالقناعة. 2. وحسن السمع له والطاعة. 3. ولا تقع عيناه منك على قبيح.

4. ولا يشم أنفه منك إلا طيب الريح، واعلمي أنّ الماء أطيب الطيب المفقود، والكحل أحسن الحسن الموجود.

5. والتعهد لوقت طعامه. 6. والهدو عند منامه. 7. والاحتفاظ بماله. 8. والرعاية على حشمه وعياله. 9.ولا تفشي له سراً. 10. ولا تعصي له أمراً. 11.واتقي الفرح لديه إذا كان ترحاً 12. والاكتئاب عنده إذا كان فرحاً.

إنّ هذه الوصايا العشر وما تلاها "تحمل أساس السعادة الزوجيّة القائمة على الحب والرضى والقناعة والوفاء بمتطلبات الزوج وحقوقه، وما يقابلها من حقوق المرأة والثواب النفسي والاجتماعي من الزوج"، [3]وجاءت شاملة لكلّ مظاهر الحياة الزوجية داخل البيت وخارجه.

ووظّفت في هذا الجزء من الوصيّة عدداً من الأساليب اللغوية التي تدور في فلك الاستراتيجيّة التوجيهيّة المباشرة؛ فالمرسل ينتج خطابه عبر استراتيجية مختارة لينجز بها فعلاً وفقاً للدور المنوط بالخطاب في المنهج التداولي، والمقاصد هي المسؤولة المباشرة عن صياغة الخطاب وفق كيفية معينة، وهي التي تدفع إلى إنجاز الفعل اللغوي وفق استراتيجية بعينها، كما أنّها هي التي تقيّد الطاقة التأويلية لقرّاء الخطابات كي يصلوا إلى معنى النص وفق فهمهم لذلك المقصد.

---

[1] يوسف تغزاوي، الوظائف التداولية واستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، ص56

[2] عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع، ص63.

[3] أحمد يوسف خليفة، قراءة في أدب الوصايا، ص28.

إنّ فكرة "أفعال الكلام" ماثلة بوضوح في هذا الجزء من الوصيّة، وتقوم هذه الفكرة على "أنّ الجمل اللغوية لا تنقل مضامين مجرّدة، وإنما تؤدي وظائف تختلف باختلاف السياقات والمقامات المتنوعة".[1] و"الفعل الكلامي" عند (أوستن) و(سيرل) يعني "التصرف أو العمل الاجتماعي أو المؤسساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام؛ ومن أمثلته: الأمر، والنهي، والوعد، والسؤال، والتعيين، والإقالة، والتعزية، والتهنئة".[2] وتعدّ هذه النظرية "دراسة نسقية للعلاقة بين العلامات ومؤوليها، ويتعلق الأمر بمعرفة ما يقوم به مستعملو اللغة، وأي فعل ينجزون باستعمالهم لبعض العلامات". [3]

وقد رتَّبَتْ المرسلة توجيهاتها وفق مقصديّة معيّنة تَظْهَرُ فيها بوضوح قيم المجتمع وأعرافه وأفكاره المستقرّة الثابتة في مسألة علاقة الرجل بالمرأة؛ فالمرأة مُطالَبَةٌ في هذه التوجيهات الخطابية أن تبذل أقصى وسعها لتحقيق أعلى درجات الراحة والرضى لدى الزوج، واستخدمت في ذلك أساليب لغوية ذات فعل إنجازي مباشر، وذات فعل تأثيري واضح على المتلقية، ووجّهتْ من خلالها ما تريد من ابنتها أن تتمثّله وتحرص عليه، مصرّحةً بمقصدها مباشرة، **ومن هذه الأساليب:**

- **أسلوب الأمر: رصيد المكتسبات**

صنّف (سيرل) و(باخ) و(براون) و(ليفنسون) أسلوب الأمر على أنه جزء من الأفعال التوجيهية، [4] وعدّه (بيرلمان) ضرباً من الموجّهات الإلزامية، [5] وقديماً عّرفه العلوي بأنه" صيغة تستدعي الفعل أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء". [6] وفكرة الاستعلاء التي يتضمّنها أسلوب الأمر تشي بطبيعة العلاقة بين المرسل والمتلقي من جهة، وتعكس فكرة "السلطة" في الخطاب من جهة أخرى. وهذه السلطة تؤدّي دوراً مهماً في "إنتاج الخطاب وتأويله، بل وتمنحه قوّته الإنجازية".[7]

إنّ الأم المرسلة تمتلك سلطة الأمومة، وهي وظيفة اجتماعية تقتضي منها تقديم توجيهات معينة لابنتها المقبلة على الزواج، ويفترض بالبنت أن تتلقّف هذه التوجيهات بحرص باعتبارها خارطة طريق مختارة للوصول بها إلى برّ الأمان. إنّ سلطة المرسل تنعكس في قدرته على إخضاع اللغة بوصفه الفاعل الرئيس في الخطاب، وهي كفاءة تواصلية يستعملها المرسل بتقنياتها المختلفة في التأثير على تفكير المخاطب وسلوكه واستجاباته. ولعل صيغة الأمر

---

[1] طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص260.

[2] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص10.

[3] فرانسواز آرمينكو، المقاربة التداولية، ص60. وحول نظرية أفعال الكلام أيضاً انظر: الطبطبائي، طالب سيد هاشم، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، ط1، 1994.

[4] انظر Searle. John., Expression and Meaning, Cambridge University Press, USA,1999, P.3

وانظر أيضاً: أوستن، نظرية أفعال الكلام (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، ص8. وعبد الحق، صلاح إسماعيل، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993، ص222.

[5] عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع، ص214.

[6] العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي (ت 745 هـ)، كتاب الطراز، مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ، ص530.

[7] الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2004، ص220.

بأنماطها المختلفة هي أكثر الصور اللغوية اقتراناً بفكرة السلطة، ويخرج (الأمر) في هذه الوصيّة إلى معنى النصح بصورة واضحة، وهذا هو لبّ فكرة الاستراتيجية التوجيهية في الخطاب. وقد جاء الأمر بصور لغوية متعددة هي:

- **الأمر باستخدام المصدر:**

وهذه الصيغة هي الغالبة في الوصية، ومن أمثلتها:

- "المعاشرة له بالقناعة"، والمعنى: عاشريه بالقناعة.
- و"حسن السمع له والطاعة"، والمعنى: أحسني السمع له وأطيعيه.
- و"التعهد لوقت طعامه"، والمعنى: تعهدي وقت طعامه.
- و"الهدوّ عند منامه"، والمعنى: التزمي الهدوء عند نومه.
- و"الاحتفاظ بماله"، والمعنى: احتفظي بماله.
- و"الرعاية على حشمه وعياله"، والمعنى: ارعي حشمه وعياله.

والتعبير بالمصدر عن (الأمر) فيه غير مسألة؛ فالمصدر بدلالته على مطلق الحدث يخرج إلى حيّز تمثّل الحدث، وكأنمّا هو في درجة الكمال وليس في صيغة نسبيّة كما هو الحال مع الفعل الذي يقترن بالزمن ويتبدل بتبدّله، أو في المشتقات الجارية مجرى الفعل التي تدلّ دلالة نسبيّة على الحدث مع معنى آخر كالفاعلية أو المفعولية أو سواهما، أما المصدر فهو يأخذ معنى الإطلاق لا النسبية، وقد أشار ابن جني في الخصائص [1] إلى بعض أسرار التعبير بالمصدر، وأنه قد يُخْرِجُ المعنى إلى فكرة المبالغة والكمال وهما نقيضا النسبية. ويستفاد من هذه الفكرة أنّ الأم لا تريد لابنتها أن تعاشر زوجها بالقناعة أحياناً، مثلاً، أو على وجه عادي من الوجوه، بل تريد لها أنْ تتمثّل هذا الأمر دائما، وفي كل حال، وعلى وجه من الكمال فيه، وليس مجرد تنفيذ اعتيادي للمطلوب. وكذا التعهد لوقت طعامه الذي تريده على خير وجه وبصورة غير نسبيّة، وغير خاضعة لتبدّل الأحوال والأمزجة، والأمر نفسه ينطبق على بقيّة جمل الأمر بوساطة المصدر.

- **الأمر باستخدام فعل الأمر الصريح:**

وهذا الأسلوب قليل الورود مقارنة باستخدام صيغة المصدر في الأمر، ومن أمثلته في الوصيّة: "واتقي الفرح لديه إذا كان مرحاً، واتقي الاكتئاب لديه إذا كان فرحاً"، لكنّ الفعل المستخدم في هذه الصيغة الأمرية "اتقي" يوجه إلى نوع من ترك المسافة الآمنة بين الفعل وصاحبه، فلم تقل المرسلة:" لا تفرحي"، بل قالت: "اتقي"، والوقاية تقتضي إضافةً إلى ترك الفعل أن تترك مسافةً آمنة مناسبة بعيدة عنه، وفيها مزيدٌ من التحوّط والتنبّه الإضافي والحرص على الآخر بصورة كبيرة، وهو أبلغ من قولها: "لا تفرحي" الذي يعني فقط الانتهاء عن الفرح وقت اكتئابه، وإنما هو تجنب الفرح وتوقّيه تماماً في حالة الاكتئاب. ويعزّز هذا المعنى الرواية الأخرى لهذا الجزء من الوصيّة التي أوردها صاحب "العقد الفريد"، واستخدم فيها أسلوب التحذير بـ "إياك"، وجاء في هذه الرواية: "ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتمّاً، [*] والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً"، [2] والتحذير معناه الابتعاد بتاتاً عن المنطقة المحذّر منها، وهو يتوافق مع معنى الفعل "اتقي".

---

[1] انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392 هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط4، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990، 259/3.

[*] مهتماً: أي أصابه الهم فأصبح مهموماً. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة(همم).

[2] ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج7/ص89-90

ومن التقنيات الخطابيّة المهمّة التي استخدمتها المرسلة متوسّلة بفعل الأمر الصريح، متوقعة أن تسهم في نجاح الرسالة اللغوية وقبولها وتحقيق أغراضها ما يمكن تسميته بتقنية "الوعي المستنير"، التي تقوم على وضع المخاطب دائماً في بؤرة دائرة الوعي، ويترتب عليها أن تنبثق سلوكاته كلها عن وعي تام وعن إحساس واعٍ بما يجري، مما يجعلها سلوكاتٍ مستنيرةً واعيةً تعرف مواقع أقدامها. وقد تمثّل ذلك من خلال فعل الأمر: "اعلمي" وتكراره في الوصية مرّتين:

الأولى: جاءت مع وصيتها باستخدام الماء طيباً، والكحل حسناً قالت: "واعلمي - أي بنية- أن الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود"؛ فالعلم يسوّر العبارة ، ويساند هذا التسوير التوكيد بـ"أن": "واعلمي أن"، وتستعين المرسلة بأسلوبين لغويين سبق الحديث عن أثرهما لضمان حسن الاستجابة والتفاعل الإيجابي مع الطلب، هما أسلوبا التصغير والنداء مقترنين: "أي بنية"، وهذا التسوير بالعلم هو تحريك لدائرة الوعي باتجاه إدراك أهمية هذين العنصرين "الماء والكحل" في حياة المرأة من وجهة نظر ذلك المجتمع، ويدلنا عليه أنه لم تكد تخلو وصية من وصايا الهداء من التذكير بهما وبأهميتهما.

واستعانت المرسلة في تقنية "الوعي المستنير" باسم التفضيل مكرراً مرتين: "الماء أطيب الطيب المفقود"، و"الكحل أحسن الحسن الموجود". واستعانت كذلك بالمطابقة بين المفقود والموجود؛ فالماء طيب المرأة، لكنّ تَفوُّقَ هذا الطيب وأهميته لا يدركان إلاّ عند فقده، والماء لصيق بالإنسان وضروري ولا يمكن الاستغناء عنه أبداً، وتتبدّى أهميته في أوضح تجلياتها حين نفقد الماء؛ فهو كما يوصف:"أهون موجود وأعز مفقود". أمّا الكحل فهو حُسْنٌ إضافي وخارجي، وهو يزيد الطيب طيباً والحسن حسناً؛ فكلمة "مفقود" صفة للماء تدفعها باتجاه الحرص عليه وعدم التفريط فيه؛ لأنّ فقده يعني الخبث وانعدام الطيب، أما كلمة (موجود) صفة للكحل فتدفعها باتجاه توفيره وجلبه.

إنّ تقنية "الوعي المستنير" مهمّتها عموماً أنْ تضع في روع المرأة المتلقية أنّ القضيّة تشبه أن تكون قاعدة متفقاً عليها، أو قانوناً لازماً للنجاح، وتحقق ذلك عبر الجملة الأمرية بالفعل "اعلمي" الذي يتعدى إلى مفعولين سدّ مسدّهما المصدر المؤول من (أن) واسمها وخبرها؛ وجاءت الجملة التي تمثّل المفعولين، والتي أنجزت المرسلة التوجيه بها جملة خبرية تقريرية، تتحول عبر الوصية إلى فعل من أفعال الكلام: "أن الماء أطيب الطيب المفقود وأن الكحل أحسن الحسن الموجود"، والتوجيه بالتقريريات مما التفت إليه التداوليون،[1] وهو في سياقه أبلغ من التوجيه المباشر بالأوامر والنواهي، ويتم عبر عرض حقيقة يقينية من وجهة نظر المرسل، ويطلب من المتلقي الوعي بها، والنتيجة المتوخاة من حالة الوعي تعديل السلوك تلقائياً؛ فإنّ وعي المرء بالشيء يعني صدوره التلقائي والعفوي عنه ؛ وإذن فالمتوقع أنْ تضع المتلقية الماء والكحل في الموقع الجدير بهما في حياتها اليومية؛ لما لهما من أهمية.

الثانية: في الجزء قبل الأخير من هذا النص، وهو الجزء الذي أوردته المرسلة بعد مطالبها العشرة وتوابعها، ولخّصت فيه قاعدة تظنّ أنّها تمثّل الوصفة المثالية لإعانة ابنتها في تحقيق كل ما سبق من مطالب، وهذا الجزء هو قولها: "واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواك ورضاه على رضاك فيما أحببت وكرهت"، وفيه حديثٌ عن الضمانة الوحيدة للنجاح في كل ما سبق من وجهة نظر المرسلة، وتضافرت في هذا الجزء تقنيتان:

[1] انظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص207.

الأولى: ما أسميته "تقنية الوعي المستتير"، وعبّر عنها الفعل "اعلمي" بصيغة الأمر، وفيه دعوة لإعمال الوعي والتفكّر، وترتيب المسائل وفق منطقية تضمن النجاح، وجاء الفعل (اعلمي) مسوّراً للوصفة المثالية في النجاح. ويلاحظ أن ضمائر الخطاب في هذه العبارة قد جاءت متوالية مترابطة، لتزيد من المسؤولية الفردية على المخاطبة تجاه مسألة الوعي بصورة كبيرة، وذلك على النحو الآتي:

(اعلمي/أنتِ، أنكِ/أنتِ، لن تصلي/أنتِ، حتى تؤثري/أنتِ، هواكِ/أنتِ، رضاكِ/أنتِ، فيما أحببتِ/أنتِ، وكرهتِ/أنتِ).

وليس في العبارة سوى ثلاثة ضمائر لا تحيل على المخاطبة بل تحيل على الزوج، وهي:(هواه/ هو)، (منه/هو)، (رضاه/ هو)؛ ذلك أن الوعي بهذه المسألة هو دورها هي، هي وحدها، وهذه المسألة إنْ نجحَ الوعيُ بها كان ذلك كفيلاً بنجاح كلّ ما تقدم؛ ولذا تتلاشى العناصر الأخرى كلها، وتظهر شخصية المخاطبة بصورة واضحة كما رأينا. وأسهم في تركيز الوعي أداة التوكيد (أنّ) متصلة بكاف الخطاب "واعلمي أنك"، والتوكيد هو نوع من توثيق الطلب المرتكز على العلم والوعي.

الثانية: وأسميتها تقنية "الحصاد المشروط"؛ واعتمدت المرسلة في تحقيقها على أسلوب لغوي مركّب تشكّل من أسلوب النفي للمستقبل بوساطة (لن) مقطوعاً بـ"حتى: التي بمعنى "إلى أن"؛ أي انتهاء الغاية: "واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواك ورضاه على رضاك"، والغاية هنا ليست مكانية أو زمانية، بل إنجازية ؛ وتعني إنجاز الأمر والوصول إلى ثمرته وغاية منتهاه، أو هو الحصاد المطلوب من أداء كلّ هذه التوجيهات؛ فالأمّ تَعْلَمُ أنّ هذه المطالب عسيرة وصعبة، وأنّ النفس تتفلّت عليها؛ فليس كمال الطاعة بأمرٍ سهل أبداً على النفس، ويلزمه نكران الذات والإيثار الكبير إلى درجة التلاشي في الآخر؛ فنجاحها مشروط بهذا الأمر، ووصولها إلى مبتغاها عند زوجها منوط بهذا الالتزام، وهو إيثار هواه على هواها ورضاه على رضاها فيما أحبّتْ وفيما كرهتْ.

ويلاحظ هنا، في هذه العبارة تحديداً، تَغالُبُ الضمائر: (هواه/ هواك، رضاه/ رضاك)؛ ليمثّل وجود نزعتين داخل المخاطبة: نزعة تدفعها إلى التفلت على هذه المطالب العسيرة التي تحوّلها إلى أَمَةٍ تدور في فلك مليك، ونزعة تدفعها إلى الامتثال لكلّ هذه المطالب رغبة في التحوّل من أمَةٍ إلى ملكةٍ متوجة. وتأتي تقنية الحصاد المشروط لتصل بها (المتلقية) إلى وضع حدٍّ لهذه المغالبة بين النزعتين، من خلال خيارٍ واضحٍ لصالح إيثار رضى الزوج على رضاها وهواه على هواها؛ أي تحقيق كلّ ما يحبُّ على نحوٍ من الاستعلاء لصالحه، وعبّرت المرسلة عن هذا الاستعلاء بصورتين لغويتين هما:

- الفعل (تؤْثري)؛ والإيثار فيه إعلاء رغبةٍ على رغبة وخيارٍ على خيار وذاتٍ على ذات.
- وحرف الجر (على) الذي يفيد الاستعلاء، وأدّى دوراً فاعلاً في تمثيل الاستعلاء المطلوب لصالح الزوج، وذلك على نحو كلي، وفي كل شيء، وعبّرت المرسلة عن هذه الكليّة باستخدام فعلين متضادين يمثّلان أمر المرأة جميعاً: "فيما أحببتِ وكرهتِ"؛ فالأمرُ إما محبوبٌ وإما مكروه، والمطلوب إعمال هذه المعادلة: إعلاء رضاه على رضاكِ وهواه على هواكِ، في كلّ أمرٍ وفي كلّ حين؛ أي دائماً وفي الحالات جميعاً.

وتعلّق سهام الفريح على هذه المعادلة بقولها: " فإن كنا نستخلص في هذا المعنى وجوب الطاعة الخالصة للزوج، فإنّ الأمّ في الحقيقة تريد لابنتها الراحة والطمأنينة في ظل هذا الرجل

المتميز في عصره، ولعلها تريدها أن تسعى أيضاً إلى تحقيق ما أوصتها به في أوّل حديثها:" كوني له أمة يكن لك عبداً". [1]

- **أسلوب النهي: ركام الخسارات**

جاء النهي [*] في الوصية بصيغة مباشرة بوساطة (لا) الناهية الجازمة، ومن أمثلته في النص: "فلا تقع عيناه منك على قبيح"، ولا يشمّ أنفه منك إلا طيب الريح"، و"فلا تفشي له سراً"، و "لا تعصي له أمراً". واستخدام النهي بصيغته الصريحة يعدّ دليلاً على حرص الموصية على أن يبلغ قصدها التوجيهي إلى ابنتها بوضوح، وأن تفهم منها حرصها الشديد على التقيّد بهذه الوصايا، والعمل بها على الفور. كما أنّ علامات الجزم في أسلوب النهي، كالسكون في: "تقعْ" ويشمّ"، وحذف حرف النون في:"تفشي وتعصي"، تسهم في رسم الحزم والقطع والفورية في هذا النهي الحازم؛ فالسكون مثلاً خلاف الحركة، وكأنّما هو يصوّر حركة الانتهاء والكف والتوقف، والحذف كذلك فيه كفٌّ وتراجعٌ إلى الخلف، وهو يتّسق مع فكرة الانتهاء وعدم التقدم.

وربما يجدر بنا التنبيه على مسألة تتعلق بالصياغة في أسلوب النهي في قولها: "فلا تقع عيناه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك إلا طيب الريح"، وهي إسناد النهي إلى عيني الزوج وأنفه زيادة في النصح والإرشاد؛ فلم تقل لها: فلا تريه قبيحاً منك، ولا تصدر منك إلا الرائحة الطيبة"، بل قالت: "فلا تقع عيناه منك، ...، ولا يشم أنفه منك ..."؛ ومعناه: إياك إياك أن تقع عيناه منك على قبيح ولو كان ذلك بصورة مباغتة؛ فإنّ عليكِ دائماً أن تكوني مستعدةً بجمال المشهد والصورة والرائحة الطيبة. وتَضافَرَ النهيُ والاستثناءُ في توكيد هذا المعنى: (لا يشمّ /إلا)؛ فكأنّما جاء النهي شاملاً ثم انتزع منه الشم المسموح به وهو الرائحة الطيبة.

ونجد مثل هذه الفكرة المركّزة في اقتران النهي بالتوكيد، وذلك في قولها، وفقاً لرواية التجاني: "وأما التاسعة والعاشرة فلا تفشينّ له سراً ولا تعصينّ له أمراً"، [2] وفيه تعظيم للنهي وتقويته؛ ليَشْعُرَ المتلقي بِعِظَمِ الأمرِ وخطورته فيبتعد عنه. وهذه التقنية بأدواتها اللغوية مشابهة لأسلوبها في اتباع سياسة الوقاية وترك مسافة آمنة بينها وبين ما تحذّر منه، يشبه ما عبّرت عنه بالفعل "اتقي".

ويُلاحظُ أنّها تُقدِّمُ الأمر والنهي مشفوعين بالتعليل والتوضيح، وهذا يتّسِقُ مع غرض النصح الذي خرجا إليه من جهة، ويتّسِقُ مع استراتيجية خطابيّة مهمّة تتمثّل في توضيح العوامل التي أدّت إلى لزومهما وتمثّل ضرورتهما من جهة أخرى، والأمر والنهي المعلّلان أدعى لتقبّل المتلقي واستجابته؛ ومن أمثلة ذلك قولها معللة أمرها بالمعاشرة له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة: "فإنّ في القناعة راحة القلب وحسن السمع والطاعة رأفة الرب"، وكأنّ في هذا التعليل إجابةً عما يمكن أن يدور في ذهن المتلقية من تساؤلات حول ضرورة القناعة، أو أهمية الطاعة، وهو تحفيز من نوع ما للاستجابة. ومنه أيضاً قولها في تعليل النهي عن إفشاء الأسرار وعصيان الأوامر: "فإنّكِ إن أفشيتِ سرَه لم تأمني غدرَه، وإن عصيتِ أمرَه أوغرتِ صدرَه". ويعلّل الدليمي وضع الأسباب الموجبة مع كل توصية بقوله: "إذ لعل ابنتها لا تدرك بعض المعاني التي

---

[1] سهام الفريح، الوصايا في الأدب العربي القديم، ص38.

[*] يصف السكاكي النهي بأنه" محذوٌ به حذو الأمر في أنّ أصل استعمال "لا تفعل"، أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور؛ فإن صادف ذلك أفاد الوجوب وإلا أفاد طلب الترك حسب، والأمر والنهي حقّهما الفور". السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت 626 هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987، ص320.

[2] التجاني، تحفة العروس ونزهة النفوس، ص121-122.

ذهبت إليها الأم؛ لأن تجربة البنت في الحياة محدودة، وخبرتها قليلة لم تصل إلى غاية الإدراك بعد". [1]

وهذا التعليل ينتمي بشكل أو بآخر إلى "استراتيجية الإقناع"، التي تقوم على "توفير الشروط التي تحوّل النص إلى فعل لغوي مناسب للتأثير في سياق خاص"، [2] والسياق الخاص هنا هو مرحلة ما قبل الزفاف بقليل، حيث الفتاة بأمسّ الحاجة لمن يبصّرها بالكيفيّة التي تضمن لها البيت السعيد. وبَنَتْ المرسلة فكرتها الإقناعيّة على أنّ الالتزام بهذه الأوامر والكفّ عن هذه المنهيّات فيه تحقيق لعدد من المكتسبات من جهة، ودفع لعدد من المخاطر والمكدّرات من جهة أخرى، وهذه المكتسبات تصنع البيت السعيد، أو على الأقل تساهم في إدامة سعادته، وهذه المكدّرات قد تهدم البيت السعيد أو على الأقل تسهم في هدمه؛ فالمكتسبات تفتح الباب واسعاً على المكسب الأكبر من الزواج، وهو الرضى والسعادة والأمن، أمّا تجنب المكدّرات والخسارات فهو يقي البيت غائلة الشقاق والطلاق والضياع والشقاء. وهذه المعادلة المزدوجة تنمّ على تفكير براغماتيٍّ لدى الأم المرسلة، ويعدّ مضمونها حافزاً للقبول والالتزام من طرف المتلقية.

أسلوب الدعاء:

تختم المرسلة وصيّتها بالدعاء، ويبدو الدعاء خير خاتمة لهذه الوصيّة، وكأنه ضمانة أخرى إضافية وضرورية لما تظنّه المرسلة الوصفة المثالية لنجاح ابنتها في حياتها القابلة؛ فتوفيق الله سيعينها على القيام بمهمتها على خير وجه: "والله يخير لك ويصنع لك برحمته"، وفي رواية الفاضل: "والله يخير لك بحسن الصنيع واستودعك الله والسلام عليك". [3] وقد أشار (كرايس) إلى القوة الإنجازية الخاصة التي يتضمنّها أسلوب الدعاء. [4] وجاءت العبارة في صيغة الخبر الذي خرج إلى غرض الدعاء؛ [*] بقصد إظهار الضعف والاسترحام.

ويلاحظ أنّ خاتمة الوصية ليست منبتّةً عن جسم الوصية، وهي امتدادٌ طبيعي للتوجيهات التي سبقتها. وفي هذا الدعاء إشارة واضحة إلى عقائد القوم وإيمانهم بالله مع أنّ الوصية جاهليّة؛ فاللغة تشي بمعتقدات الناس، وهذا هو أحد التجليات الاجتماعيّة للغة. وفي قولها ما يشبه فكرة "التوكل" في التصوّر الإسلامي؛ فالأمر لله في النهاية، هو يختار ما يشاء، ولكن علينا أوّلاً أنْ نأخذ بكل هذه التدابير وكل هذه الإجراءات؛ فالعمل أوّلاً ثمّ علينا أن نستسلم لمشيئة الله.

ولربما خطر لبعضهم أن يضع أسلوب الدعاء ضمن التجليّات اللغوية للاستراتيجيّة التضامنيّة، فيكون نوعاً من التضامن والدعم من طرف الأم، ولا ضير في تبنّي هذه الفكرة، لكنّنا يجب أن نقرأها في سياقها؛ فإنّ مجيء هذا المقطع الدعائي في خاتمة الوصيّة بعد كل هذه التوجيهات والتنبيهات، وبعد قاعدةٍ تمثّلُ فكرة "الحصاد المشروط"، وقوامها أنّ شيئاً لن يتحقق ما لم تؤْثِر رضى زوجها على رضاها وهواه على هواها، وهي قاعدة حادّة وحازمة: (لن

---

[1] الدليمي، جمهرة وصايا العرب، ج1/67-68.

[2] حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص146. وحول دور التعليل في استراتيجية الإقناع: انظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص487.

[3] الوشّاء، الفاضل، ص223-224.

[4] العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص97.

[*] وهو نمط معروف من أنماط خروج الخبر على خلاف الأصل لأغراض تستفاد من السياق. انظر: العباسي، أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد (ت963 هـ) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ط1، 2010، 375/1. والهاشمي، السيد أحمد، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2002، ص56. وعباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، عمان، ط2، 1989، ص108.

تصلي/ حتى)، هو نوع من التوعية الإضافية بأن العمل والبذل وإنكار الذات والتفاني هو المطلوب للنجاح، ولن يتحقق ما تريدين إلا بالعمل، ويكون الدعاء لمسة إضافية وداعمة، وتوجيهاً باستحضار رحمة الله بعد إنجاز المطلوب جميعاً على خير وجه؛ فالمخاطبة وحدها هي المسؤولة عن إنجاح حياتها، ودليلنا هو حركة الضمائر في جملة الدعاء التي تُفْرِدُ المخاطَبة وتضعها في بؤرة حركة الخطاب:

والله يخير ← لكِ/ أنتِ

ويصنع ← لكِ/ أنتِ

ويلاحظ في العبارة أنّ إرادة الله ورحمته هي التي تحيط بالمشهد كله؛ ولذا جاء لفظ الجلالة مركزاً في الخطاب في هذا الجزء من الوصية، فقد ظهر مسنداً إليه مبتدأً على هيئة اسم ظاهر(الله)، وفاعلاً ضميراً مستتراً (هو) في جملتين: "والله يخير لك ويصنع لك"، وجاء ضميراً متصلاً مضافاً إلى الرحمة بعد باء تفيد الاستعانة:(برحمته)؛ فهو الذي يخير، وهو الذي يصنع ويرحم. أما المتلقية فجاءت ضميراً متصلاً جزءاً من قيد الجر في الجملتين: (لكِ/ لكِ)، والمرسلة تأمل وتدعو أنْ يحيط خيار ابنتها برحمته، وأنْ يكافئها بما هي أهله، بما ستبذله من وسع لإنجاز المطلوب منها بكفاية واقتدار.

- **التشكيل الصوتي والطاقة الإنجازية:**

وظّفت المرسلة عدداً من الفعاليات الصوتية المنظّمة نجحت في صناعة فعاليّة دلاليّة منسجمة مع السياق الخاص للوصية وأغراضها، وهذه الفعاليات متّصلة بالاستراتيجيّة التوجيهيّة، ويمكن تسميتها بتقنية " الطَرَقات المركّزة" ؛ وهذه الطرقات تحقّق ما يسميه (بول زمتور) الطاقة الإنجازية للصوت؛ ويعبّر عن ذلك بقوله: "إنّ الصوت له سلطة خفيّة قد تكون أحياناً أنجع وأقوى من سلطة الحجج والمضامين".[1] كما أنّ هذه الفعاليّات الصوتيّة لها دور كبير في تحريك الفضاء الانفعالي للمتلقي، وشحْنِهِ بشحنات خاصة تدفعه دفعاً باتجاه مقاصد الخطاب. وقد نفّذت المرسلة هذه التقنية بالاعتماد على عدد من التلوينات الصوتية بطرائق متعددة منها:

- الجمل القصيرة المركّزة والتقارب بين المقاطع، وفيها طرقات متوالية على الموصى إليها بغرض تنبيهها بما عليها الالتزام به؛ فنجد ما يشبه التقارب الصوتي بين نهايات الجمل، والعلاقات الأفقية تميل إلى التماثل أو التقارب بين المقاطع، أو بين مكوّنات الجمل التي تؤثر على المتلقية.
- السجعات الخفيفة، وهي تصبّ في الغرض ذاته، وتُوالي الطرقَ في اتجاه واحد على مفردات الوصيّة ومعانيها، ومن ذلك: (القناعة/ الطاعة)، (القلب/ الرب)، (قبيح/ ريح)، (المفقود/ الموجود)، (طعامه/ منامه)، (مَلهَبة/ مَغْضَبَة)، (ماله/ عياله)، (التقدير/ التدبير)، (سراً/ أمراً)، (ترحاً/ فرحاً)، (التقصير/ التكدير)، (هواك/ رضاك). كما أنّ هذه السجعات أدعى إلى الحفظ، ولعل هذا أحد أسباب خلود هذه الوصيّة وسيرورتها.
- توظيف الطباق والمقابلة والازدواج والجناس، وكلّها مرتبطة بالاستراتيجية التوجيهية بصورة مباشرة؛ فمن أمثلة الطباق: (المفقود/ الموجود)، (الفرح/ الاكتئاب)، (الترح/ الفرح)، (أحببت/ كرهت). وفي الطباق إشارة إلى ما يمكن أن يكون عليه الحال بين

[1] حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص112.

صورتين: صورة الالتزام، وصورة عدم الالتزام؛ ولهذا أثره البالغ في تحديد اختيارات المتلقية ونتائجها. ومن أمثلة الازدواج قولها: "إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه"، ومن أمثلة الجناس: (خرجت ودرجت). و"يصنع التجانس بين الكلمات لوناً من المماثلة الصوتية أو الرتابة التي تؤكّد المعنى وتقوّي الغرض". [1] والجناس والازدواج يسهمان في تكثيف الطاقة الإنجازية لأفعال الخطاب، و"عناية المرسلة بالنغم الموسيقي يزيد الأسلوب جمالاً في الأذن، ويجعله أشدّ تأثيراً في النفس". [2] وهذا يكشف أنّ "الجاهليين كانوا يُعنوْنَ بتنميق أسلوبهم في الوصايا حتى يكون له وقعٌ جميل، ويكون هذا عاملاً مساعداً على الإصغاء إلى الوصيّة ثم التأثر بها". [3]

وهذه الطاقة الصوتية في سياقها المناسب "تكاد تكون حجّة على صدق الخطاب"؛ [4] وبذا ترتبط تقنيات التشكيل الصوتي بتجليات الاستراتيجية الإقناعية في الخطاب، إضافة إلى كونها من وسائل تقوية القوّة الإنجازيّة للخطاب، بجانب الوسائل التركيبية والمعجمية والخطابية الأخرى؛ إذ يرى (أوستن)"أنّ قوة المنطوق الإنجازية تحقيقٌ لمقصد المتكلم تحقيقاً ناجحاً"، [5]وهذه القوّة "جزء من بنية النص الدلالية، وتتعلّق بالشدّة أو الضعف اللذين يمكن أن يعرض بأحدهما غرض إنجازي واحد". [6]

- **التدرّج الخطابي ووظائفه الإنجازية:**

من الملامح الماثلة في الوصيّة "التدّرج الخطابي"، وهو متصل بترتيب الخطاب، وحول الترتيب يقول الجرجاني: "إنه لا معنى للألفاظ في حد ذاتها إلا إذا كان ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة". [7] وعنده أنّ الكلام "لا يستقيم، ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص"؛ [8] فإنه" لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصدٌ إلى صورة وصفة...، وإذا كان كذلك فينبغي أن ينظر إلى الذي يقصد واضع الكلام أن يحصل له من الصورة والصفة". [9] وترتيب الخطاب يتسق مع قاعدة "الجهة" أو "الكيفية" عند التداوليين التي تقوم على عدد من القواعد الفرعية من أهمّها :"لترتب كلامك". [10]

وحقّقت المرسلة ذلك التدرج بأكثر من تقنية خطابية، أوّلها ترتيب الأبنية النصية الصغرى في الخطاب ترتيباً خاصاً؛ فقد رأيناها تبدأ وصيتها بثلاث مقدمات منطقيّة تخاطب عقل المخاطبة وقلبها، وتهيئها لتقبّل التوجيهات المركّزة بعد ذلك. وفي التوجيهات والمطالب اتبعت أيضاً نوعاً من التدّرج المنطقي؛ ففي الوصيتين الأولى والثانية تحدثت عن مطلق التعامل مع الزوج في

---

(1) أحمد يوسف خليفة، قراءة في أدب الوصايا، ص58.

(2) أحمد أمين مصطفى، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، ص11.

(3) المرجع السابق، ص12.

(4) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص109.

(5) أوستن، نظرية أفعال الكلام (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، ص76.

(6) العبد، محمد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط1، 2005، ص29.

(7) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت 471 هـ)، أسرار البلاغة، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة، بلا تاريخ، ص40.

(8) المصدر السابق، ص65.

(9) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص64.

(10) العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري، ص100.

الجوانب المعنوية، وأسمت ذلك "المعاشرة"، والعشرة هي الحياة اليومية المتكررة بين الزوجين، وأمرتها أن تحوّط هذه العشرة بسياجين أمينين يحفظانها، هما: القناعة والطاعة؛ وذلك لضمان أمرين: الأول: راحة القلب، والثاني: رأفة الرب، وفي الاثنين ضمان السعادة الأسرية.

وأمّا الوصيتان الثالثة والرابعة فيتعلقان بالجوانب المادية للزوجة وهي: النظافة والحسن والجمال. أمّا الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فتتعلق بالجوانب الماديّة للزوج، وهي: طعامه ومنامه وماله وحشمه وعياله. وأمّا التاسعة والعاشرة وما بعدهما فتتصل بمسألة التوافق بين الزوجين، وتجلّى ذلك في عدم إفشاء أسراره، وعدم عصيان أوامره ومراعاة أحواله في الفرح والترح وإيثار رضاه على رضى نفسها، والختام دعاءٌ بطلب العون من الله لإتمام كل ذلك.

ومن الأدوات اللغوية الفاعلة في تحقيق التدرج الخطابي أيضاً "التعداد"؛ إذ جعلت الموصية مطالبها ووصاياها في عدد مميز هو العدد عشرة: "احفظي عني خصالاً عشراً"؛ فهذا التعداد يشوّق المتلقية إلى معرفة كل واحدة من هذه الوصايا، وكلّما عدّدت أمّها واحدة انتظرت التالية، وهكذا، كما يساعد التعداد في حفظ الوصايا واستظهارها. والعد مبني على التراتبية؛ الأولى /الثانية /الثالثة/...والتراتبية تصنع لوناً من التدرج الذي يشد المخاطب للمتابعة مع الإمساك بالأفكار السابقة وهو ما شددت عليه المرسلة بقولها: "احفظي".

إنّ ترتيب الخطاب مظهر مهمٌ من مظاهر انسجامه كما يرى (فان ديك)،[1] والانسجام له له دورٌ فاعل في تحقيق أغراض الخطاب وفي الإبانة عنها أيضاً، ويمكننا الاتكاء عليه كثيراً في تأويل الخطاب؛ فالتدرج الخطابي يتصل اتصالاً مباشراً بما يسميه (براون ويول) "التغريض"؛ إذ ينتظم الخطاب على شكل متتاليات من الجمل متدرّجة لها بداية ونهاية، وهذا التنظيم "يتحكّم في تأويل الخطاب،...؛ بمعنى أننا نفترض أنّ كلّ جملة تشكّل جزءاً من توجيه متدرّج متراكم يخبرنا عن كيفيّة إنشاء تمثيل منسجم".[2]ولا ريب أن التدرّج الخطابي في هذه الوصية أدى غير غير دورٍ تجاه المتلقية ؛ فقد أسهم في إيصال الرسالة على نحوٍ واضحٍ لها، وفي التأثير عليها، وفي ترتيب أولوياتها، وفي ضمان تفاعلها الإيجابي مع مضمون الخطاب. كما كان له أثره الواضح في تأويل الخطاب، وذلك بوقوفنا على متواليات الترتيب ودلالاتها، وأثرها في رسم مفاصل النص وانسجامه.

رابعاً: البنية الإحالية في النص وثنائية الحضور والغياب

تعدّ الإحالة من أبرز أدوات الاتساق في النصوص كما يرى (هاليداي ورقية حسن)، [3] وهي علاقة دلالية ذات تمظهر نحوي، وهي مفتاح مهم من مفاتيح تأويل النصوص، كما أنّ التطابق الإحالي في الخطاب من أهم أدوات انسجامه وفقاً لـِ (فان ديك). [4]ولا ريب أنّ الإحالة

[1]Van Dijk.T.A., Text and Context, p.110.
[2]Brown. Gillian &Youl.George, Discourse Analysis, 7th Edition, Cambridge University Press, 1988 P.135
[3]Halliday (M.A.K) & Hassan (Ruqgaiya), Cohesion in English Language, Longman, London,1976, P.85.
[4]Van Dijk.T.A., Text and Context, p.90

اللسانية للعديد من العبارات لا يمكن تحديدها دون اللجوء لمقتضيات الاستعمال؛ إذ إنّ دلالاتها تتحدد عبر مقاصد المتكلمين.

وقد اعتمدت المرسلة في صناعة البنية الإحالية في النص على تقنية خطابية تعتمد على "ثنائية الحضور والغياب"، وهي تتصل مباشرة بالإحالات الضميرية في النص، والضمائر من الإشاريات الشخصية الجديرة بالوقوف في النصوص، إن لم تكن أهمها على الإطلاق؛ فهي تعكس طبيعة العلاقات بين أطراف الخطاب، كما تعكس حركة الشخوص في السياق. والإشاريات من العناصر البارزة التي يُعنى بها التداوليون، "وهي علامات لغوية لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي، وهي عامل مهم في تكوين الخطاب من خلال القيام بدورها النحوي ووظيفتها الدلالية، ولها دور مهم في استراتيجية الخطاب". [1]

وتعد (الذات المتلفظة/ الأم المرسلة، والابنة العروس/ المتلقية، والزوج المنتظر) العناصر الإشارية الأكثر ظهوراً في النص، ويتصل بها عدد كبير من الإحالات الضميرية، وتتبادل هذه الضمائر الحضور والغياب وفقاً لحركة الخطاب وتفاعل المرسل مع المتلقي وأغراض الخطاب. ورغم أنّ هذه الإحالات جميعها تنتمي إلى الإحالة الافتقارية، [*] إلا أنها جميعاً أيضاً تدخل في حيّز ما يسمى بالإحالة التداولية التي ترتكز على العلاقة بين المتكلم والمخاطب في مقام ما؛ حيث "إنّ المقتضي لهذه الإحالة مراد المتكلم لا نظام اللغة"، [2] إنْ لم يكن هنالك ما يمنع من تضافر مراد المتكلم مع نظام اللغة في بنائها وتفسيرها.

ورصدت الباحثة خريطة الضمائر المتصلة بهذه العناصر الإشارية في الوصيّة كلها، **والجدول الآتي** يظهر هذه العناصر بحسب حضورها وغيابها في مقاطع الوصية المختلفة:

خريطة توزيع العناصر الإشارية الأكثر حضوراً في النص والإحالات الضميرية المتصلة بها

الموضع	العناصر الإشارية الرئيسة	الألفاظ الإشارية الدالة عليها في العبارة	الإحالات الضميرية التي تحيل عليها	عدد العناصر الإحالية
العبارة التمهيدية الأولى	الذات المتلفظة / المرسلة/ الأم	لا يوجد	الضمير المستتر (أنا) في الفعل المحذوف وجوباً الذي تقديره (أنادي) أو (أدعو) الذي نابت عنه أداة النداء في "أي بنية"/لتركتُ/ولزويتُ	3
	المخاطَبة (الابنة/ العروس)	بنيّة	منك /عنك	2
	الزوج المنتظر	لا يوجد	لا يوجد	-
العبارة التمهيدية الثانية	الذات المتلفظة	لا يوجد	– الضمير المستتر (أنا) في الفعل المحذوف وجوباً الذي تقديره (أنادي) أو (أدعو) الذي نابت عنه أداة النداء في "أي بنيّة".	1

[1] الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص81.

[*] الإحالة الافتقارية تعني وجود عناصر توجيهية تنبئ عن أنّ المعلومات تستردّ من مكان آخر؛ فتكون هذه العناصر مفتقرة في تفسيرها إلى غيرها، ومن أشهر أشكالها: الضمائر وأسماء الإشارة. انظر: أنيس، تامر عبد الحميد محيي الدين، الإحالة في القرآن الكريم: دراسة نحوية نصية، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2008، ص99 وما بعدها.

[2] الحسن، شاهر، علم الدلالة السيمانتيكية والبراجماتيكية في اللغة العربية، دار الفكر، عمان، ط1، 2001، ص157.

الموضع	العناصر الإشارية الرئيسة	الألفاظ الإشارية الدالة عليها في العبارة	الإحالات الضميرية التي تحيل عليها	عدد العناصر الإحالية
	المخاطبة/ الابنة/ العروس	بنية/المرأة/الذ ساء (ال الجنسية)	أبويها/ إليها /كنت / لهن.	4
	الزوج المنتظر	الزوج/ الرجال	الرجال (إحالة تكرارية) أعيد اللفظ بدل ضميره.	1
العبارة التمهيدية الثالثة	الذات المتلفظة	لا يوجد	الضمير المستتر (أنا) في "أي بنية"/عني	2
	المخاطبة/الابنة	بنيّة/ أمة	"إنكِ"/"فارقتِ"/"خرجتِ"/ "درجتِ"/"تعرفيه"/ "تألفيه"/"عليكِ"/"فكوني"/"لكِ"/"احفظي"/لك	11
	الزوج المنتظر	قرين/ملكاً/عبداً	تألفيه /فأصبح(هو)/يملكه/له/يكن(هو)	5
العبارات التي تمثل الخصال العشر والخصلتين الملحقتين بها	الذات المتلفظة	– لا يوجد	الضمير المستتر (أنا) في "أي بنية"	1
	المخاطبة/ الابنة	– بنيّة	منكِ/ منكِ/مِنكِ/اعلمي/تفشي/تعصي/ "فإنكِ/أفشيتِ/ تأمني /عَصَيتِ / أوغرتِ/ اتقي	12
	الزوج المنتظر		لـه/لـه/عينـاه/أنفـه/طعامـه/منامـه/بمالـه/حشمه/عيالـه/لـه/لـه /سره/غدره/أمره/ صدره	15
العبارة الختامية	الذات المتلفظة	لا يوجد	لا يوجد	-
	المخاطبة/ الابنة	لا يوجد	اعلمي/أنّك/تصلي/تؤثري/هواكِ/رضاكِ/أحببتِ/كرهتِ/لك /لك	10
	الزوج المنتظر	لا يوجد	– منه/هواه/رضاه	3

إنّ استنطاق خريطة الضمائر المتصلة بهذه العناصر الإشارية الثلاثة الأكثر حضوراً في النص، ومحاولة فهمها وتفسيرها، يمكن أن يقفنا على تفاصيل ثنائية الحضور والغياب في الخطاب وفقاً لما يأتي:

- **الضمائر المتصلة بالذات المتلفظة (المرسلة)/ الأم):**

من المعلوم، ابتداءً، أنّ المرسِل موجودٌ دوماً بالقوّة، حتى لو لم يَرِدْ في النص أيُّ ضميرٍ يعود عليه، وهو ماثلٌ في ثنايا الخطاب كلّه؛ ولهذا "فالمرسل لا يُضَمِّن الضمائرَ الدالةَ عليه في خطابه شكلاً في كلِّ لحظة، لأنه يعوّل على وجودها بالقوّة في كفاءة المرسل إليه". [1] ولا نجد أيَّ عنصرٍ إشاريٍّ في النص يدل على الأم، لكنها ضَمَنَّتْ وجودَها عبر سبعة ضمائر بارزة في مواضع بعينها من الوصيّة، هي على النحو الآتي:

* ظهرت في صيغة النداء "أي بنية" أربع مرات، ومعلومٌ أن أداة النداء تختزل فعلاً محذوفاً وجوباً تقديره "أنادي" أو "أدعو"؛[*] فتكون المرسلة حينئذٍ ضميراً مستتراً وجوباً تقديره

[1] الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص82.

[*] ما يدلّ على أن حرف النداء ينوب مناب فعل مقدر تقديره (أدعو أو أنادي) قول سيبويه:" اعلم أنّ النداء كل اسم مضاف منه فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره" انظر: سيبويه: أبو بشر عمرو بن قنبر (ت 180 هـ)، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988، ج182/2. وما أورده الجرجاني في دلائله يقول:" وجملة الأمر أنه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلاً ولا من حرف واسم إلا في النداء، نحو: يا عبد الله، وذلك إذا حُقق الأمر كان كلاماً بتقدير الفعل المضمر الذي هو (أعني) و(أريد) و(أدعو)، و(يا) دليل عليه وعلى قيام معناه في النفس". انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص8. ولا يبتعد عن هذا ابن الحاجب في أماليه ولا ناظر الجيش في تمهيد القواعد. انظر: ابن الحاجب، عثمان بن

"أنا"، وهذه المرات الأربع هي: في فاتحة الوصيّة وعباراتها التمهيديّة :الأولى، والثانية، والثالثة، وهذا الورود منطقي وأشرنا إلى فكرته التداوليّة في موضعها، أما المرة الرابعة فأوردتها بعد قولها: "فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا طيب الريح، واعلمي - أي بنيّة - أنّ الماء أطيب الطيب المفقود، وأنّ الكحل أحسن الحسن الموجود"، وفيها لمسةٌ عاطفيّةٌ مصاحبةٌ لِلَمْسَةِ الوعيِ والمنطقِ المتمثلةِ في "اعلمي"، وكأنّما هي تشحنُها بلمسةٍ حانيةٍ مع شحنةِ الوعيِ، لِتَقولَ لها: إنّها من موقعها -أمّاً محبةً لها- تُعْلِمُها بهذه الحقيقة التي أجمعَ عليها تقريباً كلّ الموصين في هذا الضرب من الوصايا، وهي أهميّة الماءِ طيباً والكحل حسناً.

*ظهرت الأم المرسلة بضمير المتكلم ثلاث مرات: المرة الأولى والثانية منها في موضع واحد من العبارة التمهيدية الأولى، وذلك في قولها: "إنّ الوصية لو تُرِكَتْ لعقلٍ وأدبٍ أو مكرمةٍ في حسبٍ لَتَرَكْتُ ذلك منكِ وَلَزَوَيْتُهُ عنكِ"، والفعلان :(تَرَكْتُ وَزَوَيْتُ) يُظْهِران سلطة الأم وسيطرتها؛ فهي التي تَتْرُكُ وهي التي تَزْوي، مما يدلّ على حضور واضح للأم في هذه المرحلة من الوصيّة، يعكس حضورها الواضح في حياة المتلقية. أمّا المرة الثالثة والأخيرة فقبيل تعدادها الوصايا العشر، وذلك بقولها:"واحفظي عني خصالاً عشراً تكن لك دَرَكاً وَذِكْراً"، وكان يمكنها القول: "واحفظي خصالاً عشراً تكن..." من غير أن تظهر عبر ضمير المتكلم، ولكنها أظهرت الضمير مقترناً بحرف الجر: "عني"، وكأنّها تخبرها أنّ هذه الخصال التي سيأتي ذكرها هي عصارة تجربتها هي، وأنّها خَبِرَتْها بِنَفْسِها عبرَ تجربتها الشخصيّة، وأنها أيْقَنَتْ أنّها السبيل للذكر الحسن وإدراك الأماني والأهداف؛ ولذا فهي حريصة على إيصالها لابنتها لتنال بدورها هذا الذكر ولتحقّق أمانيها عبر التزامها بها.

*ولم تظهر الأمُّ في ضميرٍ بارز بعد هذا الموضع، وكأنّما أرادتْهُ أن يكونَ ظهورها الواضح الأخير، ثم اختفت (شكلاً) كما قلنا، وكأنما أفسحت المجال للمخاطبة/الابنة لتكون وجهاً لوجه مع الوصايا العشر التي انداحت تباعاً، وهذا الملمح متّصلٌ بتقنية " الحضور والغياب "التي أوردناها قبلاً ؛ فالاختفاء الظاهر للمرسلة، الذي عبّر عنه غياب الضمائر الدالة عليها شكلاً، رافقه حضورٌ واضحٌ للابنة المخاطبة والزوج المنتظر، دلّ عليه العدد الكبير للضمائر المحيلة عليهما بعد ذلك الموضع الذي ظهرت فيه الأم ضميراً بارزاً ظهورها الأخير. وكأنّ المرسلةَ تزرعُ في فؤاد الابنةِ أنّها ستخرج من حياتها، وأنّ ما سيبقى منها هو هذه الخصال العشر وما تلاها، وقد مهّدت لهذا الغياب بالظهور الأخير لها: "احفظي عني"، ومعلوم أنّ الحفظ يصبح ضرورياً حين يغيب الأصل، والأصل في حالتنا هو شخص الأم؛ فالأم ستنسحب تدريجياً من حياة البنت بعد زواجها، ولن يبقى منها سوى كلماتها، وستصبح الابنة في مواجهة مباشرة مع عالمها الجديد، وسوف تنخرط كلياً مع قرينها الجديد، الذي سيتحوّل من "قرين لم تألفه قبلاً" إلى ملك متوّج يملأ تفاصيل حياتها جميعاً، وحينئذٍ ستكون معه وحدها في هذه المملكة، وهي التي ستتصرّف تجاه كلِّ ما يحيطُ بها.

- **الضمائر المتصلة بالمخاطبة الابنة/ العروس المقبلة على الزواج:**

من الطبيعي أن تظهر المخاطبةُ في ثنايا النص كله؛ فالوصيّة لها، والحديث عنها، وحياتها القابلة هي محور الوصية، وهي كالمرسلة؛ إن غابَتْ غابَ الخطابُ. وقد ظهرت المخاطبة في النص عبر أربعة عناصر إشارية هي: بنيّة، وأمَة، والمرأة، والنساء. أمّا الضمائر التي أحالت

عمر(ت646هـ)، أمالي ابن الحاجب، تحقيق فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار/عمان، ودار الجيل/بيروت، 1989، ج605/2.وناظر الجيش، محمد بن يوسف بن أحمد (ت778 هـ)، تمهيد القواعد لشرح تسهيل الفوائد، ط1، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، 1428 هـ، ص353.

عليها بصورة ظاهرة فقد بلغت (39) موضعاً في النص كله، ويمكننا إبداء الملاحظات الآتية على توزيع حضورها عبر الضمائر في النص:

*ظهرت المخاطبة في العبارتين التمهيديتين الأولى والثانية في ستة مواضع من أصل (39) موضعاً، وهو عدد قليل نسبياً في وصيّة صيغت من أجلها، فيما كان حضور المرسلة في هاتين العبارتين في أربعة مواضِع من أصل (7)؛ مما يسجّل حضوراً واضحاً للمرسلة، وحضوراً خافتاً للمخاطبة. ويمكن تعليل هذا بأن المرسلة في هذه المرحلة ممسكة بزمام الأمور، وما زالت تملأ أفق المشهد قبل أن تصل إلى مرحلة الانسحاب، أما المخاطبة فهي عنصر متلقٍ فقط، مأخوذٌ بكلمات الأم التي تغمرها بكلمات المودّة والحنوّ، وهي ما زالت في هذه المرحلة محتاجةٌ لمن يُبَصِّرَها وَيُعلِّمَها، فهي بلا خبرة ولا تجربة.

*في العبارة التمهيدية الثالثة، التي أحبُّ أنْ أَصِفَها بأنّها القَنْطَرَةُ أو الجسرُ بين مرحلتين، وهي عمليّاً بؤرة الخطاب ومركزه، يلفتنا وجود ضميرين دالين على المرسِلة، فيما نجدُ أحد عشر ضميراً دالاً على المخاطبة، وهو العدد الأكبر من ضمائر الخطاب في النص في عبارة واحدة. وهنا نجد الأم وهي تصف التغيير الكبير الذي ستتعرض له البنت (المخاطبة)، وأنها ستبدأ تحمّل مسؤولياتها بعد الزواج، وأن دور الأم سيتلاشى تدريجياً، ودل هذا العدد الكبير من ضمائر الخطاب على هذا التبدل وهذا التغيير، وهذا الانتقال في المسؤوليات إلى الابنة في حياتها القابلة.

*يُعدّ عدد ضمائر الخطاب في الوصايا العشر وما تلاها من وصيتن إضافيتين محدوداً وقليلاً نسبيّاً؛ فقد بلغ اثني عشر ضميراً، وتركّز حضور هذه الضمائر في الوصيتين التاسعة والعاشرة؛ إذ بلغت فيها وحدها سبعة مواضع، وهي: "فلا تفشي له سراً، ولا تعصي له أمراً، فإنكِ إن أفشيتِ سره، لم تأمني غدره، وإن عصيتِ أمره، أوغرتِ صدره"، والعبارة مبنية على أسلوبي النهي والشرط، وحضور المخاطبة فيهما ضروري جداً، فيما غابت المرسلة شكلاً تقريباً إلا في موضع واحد. وهاتان الوصيتان متصلتان بمسألة التوافق بين الزوجين في أمورهما الخاصة جداً كما ذكرنا، والزوجة مؤتمنة على هذه الأمور والأسرار، وحضورها اللافت عبر الضمائر في هذا الجزء يدل على ذلك.

*أمّا في العبارة الأخيرة التي تشبه أن تكون ضابط الأمان لهذه الوصايا السابقة جميعاً، فقد ظهرت المخاطبة في عشرة مواضع، وهو حضور لافت لكنه منطقي جداً؛ إذ تشكّل هذه العبارة زخم المسؤولية الكبرى للابنة المخاطبة وسر نجاحها، وهي بؤرة الوعي الذي تريد المرسلة أن تزرعه في يقينها: "واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواك ورضاه على رضاك فيما أحببتِ وكرهت، والله يخير لك ويصنع لك برحمته"، ولا تظهر المرسلة شكلاً ضميرياً ابداً في هذه العبارة، ولا يظهر الرجل/الزوج إلاّ في ثلاثة ضمائر، وكأنما هذه اللوحة الأخيرة تترك الابنة وحدها تقريباً أمام مسؤولياتها الجديدة، وتكون الأم قد انسحبت انسحاباً نهائياً تاركةً وراءها الابنة مع هذه الوصايا وحياتها الجديدة. ويلاحظ أن ضمير الخطاب هو الضمير الأخير الذي يظهر في النص من بين العناصر الإحالية التي تشير إلى العناصر الإشارية الأكثر حضوراً في النص: "والله يخير لك ويصنع لك برحمته"؛ فلا تظهر الأم ولا يظهر الزوج، بل تظهر المخاطبة وحدها؛ فالوصية لها، وهي سيدة الإجابة، ولها الكلمة الأخيرة بعد أن أسدلت الوصية فصلها الأخير. أما الضمير الأخير مطلقاً في النص فهو ضمير الغائب الذي يعود إلى الله عزّ وجل: "برحمته"؛ وكأنّما تترك الأم ابنتها في أكناف هذه الرحمة، راجية أن تشملها وتعينها فيما يلي من أيامها القابلات.

- **الضمائر المتصلة بالزوج الغائب/ الحاضر:**

ظهر الزوج المنتظر في النص عبر خمسة عناصر إشارية هي: القرين، والملك، والعبد، والزوج، والرجال. وبلغ عدد الضمائر التي تحيل إليه ستةً وعشرين ضميراً في النص كلّه. ويمكننا إبداء الملاحظات الآتية على توزيعها:

*لا نجد للزوج حضوراً في العبارة الأولى، أما في العبارة الثانية فهو ممثّلٌ بعنصرين إشاريين هما: الزوج والرجال. ونجد إحالة واحدة لكنها ليست إحالة ضميرية بل إحالة تكرارية تمثّلت في تكرار كلمة (الرجال)، وهي إحالة غير مباشرة عبر أل الجنسية التي تشير إلى الزوج وغيره من عموم الرجال. وهذا الغياب منطقي؛ فالأم ما زالت تهيئ ابنتها لفكرة الزواج وحاجتها إلى الوصيّة؛ فالمنطق أن يظهر كلٌّ من الأم والابنة المتلقية بوضوح، وأن يغيب الزوج تقريباً تمهيداً لظهوره لاحقاً.

*يبدأ ظهور الزوج في العبارة الثالثة، وهي القنطرة أو الجسر الواصل بين مرحلتين، وهي التي تمثل مرحلة التغيير؛ فنجده يظهر في خمسة ضمائر فيما تظهر المخاطبة في أحد عشر ضميراً (11)، ومعنى ذلك أن حضور المخاطبة أكبر بكثير منه حتى هذه المرحلة.

*في الوصايا العشر والإضافية نراه يظهر في سبعة عشر ضميراً (17)، فيما بلغت الضمائر الدالة على المخاطبة اثني عشر ضميراً (12)؛ مما يعني حضوراً كبيراً للزوج في هذه المرحلة التي تمثّل الحياة ما بعد الزواج، حيث يصبح الزوج هو الفلك الذي تدور فيه المرأة، ويصبح هو مركز حياتها وحركتها. وتبلغ ذروة حضوره في الوصيتين التاسعة والعاشرة، إذ نجده فيهما يمثُلُ عبر ثمانية ضمائر، وهو عدد مقارب لحضور المخاطبة في هذا الموضع؛ حيث نجدها تَمْثُلُ عبرَ سبعةِ ضمائر، وهي تشكّل ذروةَ حضورِها في هذه الوصايا (العشر والإضافية)؛ وهذا متّسقٌ معَ أسلوبي النهي والشرط من جهة، ثم إن هذا الموضع يمثِّل ذروة الوصف لعملية التواصل بين الزوجين وأسرار حياتهما الزوجية، وأهمية التوافق في هذه الأمور؛ فمن المنطق أن يتعادلا تقريباً في الحضور في هذه المرحلة من النص من جهة أخرى.

*في العبارة الختامية يظهر الرجل في ثلاثة ضمائر فيما تظهر المخاطبة في عشرة ضمائر، وذلك أن هذه العبارة تشكّل مسؤوليتها الخاصة في ضمان نجاح مسيرتها وحياتها بعد الزواج، والإيثار سيكون من طرفها، والوعي يطلب من جانبها في أمرها كله فيما أحبّت وفيما كرهت. ثم إن هذه العبارة هي التي ستتركها فيها الأم، فمن المنطقي أن تحضر بوضوح، لأنها المعنيّة بتطبيق هذه الوصية؛ فالحضور الواضح للمرأة المخاطبة والغياب النسبي للزوج في هذه العبارة يتسق وهذا المعنى، مع إشارتنا الدائمة إلى أن وجود (26) ضميراً تدل على الزوج مع أن الوصية هي للمرأة المخاطبة، تجعل منه الغائب الحاضر بقوة؛ فهو عدد كبير من الضمائر يستحوذ على شطر غير قليل من مفاصل النص.

إنّ حركة الضمائر في هذه الوصية لافتة؛ فرغم أن المرأة هي بؤرة الخطاب فإنّ كلّ حركة في النص تتّجه إلى الزوج، وكلّ فعل لأجله وكلّ توجيه لإرضائه، وهذا يُفسَّر عبر معرفة المكانة الكبيرة للزوج في حياة المرأة عند العرب القدامى؛ فهو القوّام في حياتها وعلى حياتها، وكلّ حركاتها وسكناتها متجهة إليه.

خامساً: الفرصة التواصلية وأثر الخطاب

يجدر بنا - وقد انتهينا من تحليل الوصية - أن نقف مليّاً عند بعض الأخبار التي تذكر عاقبة الوصية وأثرها في حياة البنت؛ فإنّنا نجد بعض الرواة والنَقَلَة يعقبّون على هذه الوصية

بخبرٍ يفيد أنّ هذه الفتاة التزمت وصيّة أمها فحظيت عند زوجها؛ ومن ذلك :"فلمّا حُملَت إليه غَلبَت على أمره، وولدت منه سبعة أملاك ملكوا من بعده"،[1] و "فلمّا حُملَت إليه غلَبَت على أمره، وحظيت عنده"،(2) و "ثمّ إنّها زُفّتْ إليه وحَظِيَتْ عنده، وولدتْ منه أربعة ملوك وهم: ترحيل، وحجر، ومسلمة، ومعديكرب"،(3) و"فقبلت وصيّة أمّها وأنجبت له الحرث بن عمرو جد امرئ القيس الملك الشاعر".[4] وهذه العبارات التي تصف نجاح الابنة في حياتها الزوجية تشير إلى مسألتين، كلّ منهما تُحيل على الأخرى:

الأولى: نجاح المرسلة؛ فهذه الوصية رسالة لغوية ناجحة وفقاً لتعبير علماء الخطاب. ونجاح الرسالة اللغوية منوط بتحقيق غرضها، وإحداث الأثر المطلوب منها، وموافقتها لسياقها التواصلي بأبعاده المختلفة، وتلبيتها للحاجات التواصلية المتصلة بسياق الخطاب، وقد لاحظنا تَحقُّقَ كلِّ ذلك. وهذا النجاح الواضح جعل أحد الباحثين (5) يؤكد أنّ الأم قد أعدّت الوصية في نفسها قبل مواجهة ابنتها، وأنّها ذات عقلية ناضجة متفتّحة، وأنها خبيرة بنفسيّات الرجال وذات نظرة شاملة تستطيع أن تحيط بالجوانب المتعددة، وعلل ذلك بأنها قد عرفت ذلك من معاشرتها لزوجها وملاحظاتها لمن حولها.

الثانية: نجاح المتلقية في التقاط فحوى الرسالة، واستخراج عصارتها، والعمل بها. دّل على هذا حظوتها عند زوجها، بل غلبتها على أمره كما عبّر الرواة. وقالت سهام الفريح في هذا: "لعل الخبر الذي جاء في آخر هذه الوصية يؤكد أنّ الفتاة قد أخذت بوصية أمّها فتحقق لها ذلك"،[6] ويشاركها الدليمي في هذا بقوله: "والذي يبدو لي أنّ البنت التزَمَتْ وصية أمها؛ فقد نقل الرواة أنّها غَلَبَتْ على أمرِ الملك".[7]

إننا أمام عمليّة تواصلٍ ناجحٍ بكلّ ما لهذه الكلمة من معايير: مرسل ناجح أرسل رسالةً لغويةً موافقة للغرض، ومؤثرة في السامع؛ فكلّ كلمة فيها منتقاة بعناية، وموضوعة في مكانها الصحيح وبصيغتها المناسبة، ومتلقٍ ناجح أمسك بناصية النص فهماً وتدبراً؛ فوصلت كل مفردة وكل فكرة إلى مكانها من جهاز الفهم والتأويل والتحليل؛ فكان هذا النجاح وهذا الأثر. وأثر الخطاب من العناصر المهمة التي يدرسها محللو الخطابات، ويحاولون الإجابة عن سؤال جدير بالوقوف قوامه: أين يكمن الأثر؟ وكيف يعمل؟

ترى (أوياما) أنّ المعلومة أو الفكرة تتكوّن من مادة وطاقة، وهذه الطاقة هي التي تحدث الأثر في الكائنات إثر حدوث الاتصال اللغوي، وأنّ "المعلومة هي التي تمكّن الكائنات الحية من إدراك الأشياء وانتقائها وإرشاد بعضها، وبناء نفسها أو غيرها، وهي التي تعدّل وتراقب وتحثّ وتوجّه وتحدّد الوقائع والمجريات".[8] ويعدّ (داي) المعلومة التي "لا تتوفر على أثر ملموس في أيّ مكان هي معلومة خالية من أي معنى بالنسبة إلى كل الأغراض العملية".[9] ويربط (فان

---

(1) الوشاء، الفاضل، ص224.

(2) أبو حاتم السجستاني، المعمرون والوصايا، ص119.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد، 84/6.

(4) الميداني، مجمع الأمثال، 124/2. وانظر: الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، 219/2.

(5) أحمد أمين مصطفى، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، ص12.

(6) سهام الفريح، فن الوصايا في الأدب العربي القديم، ص38.

(7) الدليمي، جمهرة وصايا العرب، ج1/ص67.

(8) حباشة، صابر، قضايا في السيمياء والدلالة، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2015، ص48.

(9) المرجع السابق، ص45.

ديك) الأثر بما أسماه " التداولية النصية"، ويفترض فيها أنّ أثر النص يتحقق إذا أمكنه أن يوفر شروطاً معينة تحوّله إلى فعل لغوي مناسب للتأثير في سياق خاص". [1]

ويرى الغذّامي أنّ الأثر امتدادٌ لمفهوم (العلاقة)؛ إذ إنّ العلاقات النصوصيّة تتفاعل داخل النص بتحريكٍ من القارئ لطاقاتها المخبوءة، وحينها تتأسس الدلالة النصوصية المنبثقة عن هذه الحركة ذات الوظيفة الخلاقة لتحتوي القارئ فيها، وتشكّل تصوّراته النصوصية، مثلما فعل هو حينما شكّل علاقاتها، ومن هنا تبدأ التحوّلات بإحداث فعلها وإنتاج واقعها ؛فينبثق (الأثر) على أنه "حالة تحول نصوصي وإنساني، ويصير النص هو الإنسان والإنسان هو النص، وهذه حالة متحوّلة لا تثبت على حد قائم ؛ مما يجعل ارتكازها على (الدال) محرراً من (المدلول) أمراً حتمياً لتأسيس الدلالة الانبثاقية المتسامية على المصطلح الاجتماعي بظرفيته المحددة من داخل (المدلول)". [2]

ويربط بعض الدارسين الأثر ونجاح النص بالاستحضار المناسب للمخاطَب في النص ؛ فالخطاب يقتضي أن يكون المتكلم قد كوّن فكرةً مفترضةً وصورة متخيّلة عن مخاطبه قبل أن يواجهه بخطابه واقعياً وفعلياً، والشيء الأساس هنا أن نجاح الخطاب أو فشله رهينٌ بالمسافة الفاصلة بين المخاطب الواقعي والمخاطب المتخيل؛ فهذه المسافة هي التي تحدد فعالية الخطاب، و"كلما كانت الصورة المتخيلة أقرب من الواقع إلا وكانت عنصراً حاسماً في التواصل والإقناع، كما أنّ فعالية النص تتحدد في توفره على ما يكفي من الخصائص والإمكانات ليكون فعّالاً في إدماج المخاطب وإقناعه واستمالته"؛[3] فالنص أداة للفعل في سياق تخاطبي معين باتجاه مقاصد محددة مسبقاً لدى صانع الخطاب.

وترى الباحثة أنّ الأثر ماثلٌ في النص كله: في أصواته، وأبنيته، ومفرداته، ودلالاته، وتراكيبه، في ترتيبه وتنظيمه، في فاتحته وخاتمته، وفي تعاضده وعلائقه مع كل ما يحيط به من عناصر. إن النص "كلّ"، وأثره كامن في كلّيته، حتى لو بدا أحياناً أن هذا الأثر قد تكثّف ظهوره في بعض عناصر النص دون غيرها؛ كما في جملة" فكوني له أمَةً يكن لك عبداً" التي يتحوّل فيها فِعْلُ المرأةِ المخاطبة إلى كينونة وسجية دائمة، وبمنتهى الخضوع المبصر والطاعة الواعية اللذين سيضمنان أن تتحول بهما إلى ملكة، وكما في تمثّلات الحضور والغياب عبر حركة الضمائر التي تنقل المخاطبة تدريجياً إلى حيث تضع قدميها في عالم القرين الجديد، وتصبح وجهاً لوجه أمام عالمها الجديد ومسؤولياتها الكبيرة. لكنّ هذا لا يمنع من تكثّف الطاقة في جزء من أجزاء النص يلتمع فيه الأثر أكثر من سواه، كما في عناصر: البساطة والسهولة والوضوح والإيجاز الوافي بالغرض، والصدق وعمق التجربة.

إنّ نجاح النص واكتمال التواصل يرتبط بما يمكن أن أسميه تَحَقُّق الفرصةِ التواصليّة، ويحدث هذا عندما تؤدي الخيارات التركيبية المصطفاة للمرسلين أغراضها، وحين يكتمل الاتساق بين الفعل الكلامي ومعطيات السياق، وحين تحقق الوظائف الإنجازية لأبنية الخطاب المختلفة أدوارها المرسومة. إنها نوعٌ من اللحظة التواصليّة التي يأتلف فيها الكلام مع أغراضه ومع أحوال المخاطبين وحاجاتهم الإنسانية، وربما تكمن القمة القصوى لتجلي عمل محللي الخطابات في الإمساك بخيوط هذه اللحظة وتفاصيلها.

---

[1] فان ديك، النص والسياق، ص67.

[2] الغذامي، عبد الله، تشريح النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2006، ص 115.

[3] حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص286.

الخاتمة والنتائج:

إنّ هذه الوصيّة تمثّل فعلاً إنجازياً ناجحاً، أدّت فيه استراتيجيات الوهلة الأولى في المفتتح دورها الفاعل في انفتاح النص للمتلقية مما هيّأ لتوالي الأوامر والنواهي بعد ذلك عبر توظيف أسلوبي النداء والتصغير، وبوساطة أدوات لغوية فاعلة في هذا السياق مثل: "لو" الدالة على الشرط الامتناعي، و "لكنْ" المخففة التي يراد بها التوكيد والاستدراك.

وأظهر البحث أنّ دراسة الحدث الكلامي من جوانبه جميعها عبر سياقاته المختلفة: السياق الثقافي والاجتماعي وسياق الحال...تمثّل المفتاح الحقيقي الذي يفسّر العمليات المصاحبة للأداء اللغوي. وأنّ في الخطاب بؤرة مركزية تمسك بتلابيب النص كله، وتفسِّر كثيراً من معطياته، وأنّ أجزاء النص تتمحور حول هذه النقطة بصورة أو بأخرى، وأنّ الإمساك بهذه البؤرة من أهم أعمال محللي الخطابات؛ إذ تعدّ الثيمة المكثّفة لمقاصد الخطاب.

وأنّ الوصية توسّلت بعدد من الاستراتيجيات الخطابية، وعلى رأسها الاستراتيجيتان التوجيهية المباشرة والإقناعية، وعبر عدد من التقنيات الخطابية، منها: تقنية "التقرير المتدرج" في سرد الحقائق وصولاً إلى التوجيه المطلوب، وتقنية "الانعكاس المباشر والثمرة الحاضرة" التي تربط كلّ توجيه بثمرته المرجوّة، وتقنية "الوعي المستنير" عبر الفعل(اعلمي)، وتقنية "الحصاد المشروط" عبر الأداتين: "لن" و"حتى"، وتقنية "الحضور والغياب" المتصلة باستثمار البنية الإحالية في النص استثماراً ناجحاً، وتقنية "الطرقات المركّزة" التي أدّت التشكيلات الصوتية المنظّمة في النص وفقها دوراً كبيراً في تعظيم القوة الإنجازية للخطاب؛ مما يسهم في تحقيق أغراض النص، بتوظيف الجمل القصيرة المركّزة والتقارب بين المقاطع والسجعات الخفيفة والطباق والمقابلة والازدواج، وتعد قوة المنطوق الإنجازية جزءاً من بنيته الدلالية الفاعلة.

وتؤدي "أفعال الكلام" دورا محورياً في الوصية؛ فالأمر والنهي يعدّان من الموجّهات الإلزامية عند التداوليين، وتنويع هذه الصيغ يهدف لضمان أكبر قدر من الاستجابة لدى المتلقي. ويعدّ الدعاء ترجمة للاستراتيجية التضامنية بين المرسل والمتلقي. ولا تغيب مفردات الاستراتيجية الإقناعية عن الوصية، واعتمدت على توفير الشروط اللازمة لتحويل النص إلى فعل لغوي مناسب للتأثير في السياق الخاص الذي ورد فيه، عبر قائمة عريضة من المكتسبات التي سَتُجْنى في حال الالتزام بهذه التوجيهات، والخسارات التي سَتُتَكَبَّدُ في حال تنكّبها.

وأظهرت الدراسة أنّ " أثر الخطاب" يتحقق عبر " الفرصة التواصلية" التي تؤدي فيها الخيارات التركيبية المصطفاة للمرسلين أغراضها؛ وذلك حين يكتمل الاتساق بين الفعل الكلامي ومعطيات السياق بائتلاف الكلام مع مقاصده ومع أحوال المخاطبين وحاجاتهم، وحين تحقق الوظائف الإنجازية لأبنية الخطاب المختلفة أدوارها المرسومة.

ويوصي هذا البحث بأن يكون "الخطاب" أكثر حضوراً في الدراسات اللغوية والبحث اللغوي؛ فهو التمظهر الحقيقي للغة في أوسع تجلياتها، كما يوصي بالاستمرار في دراسة المادة اللسانية التي أنجزها العرب في عصورهم المختلفة دراسة داخلية بأدوات منهجية مختلفة بحثاً عن السيرورات التي تعمل بها اللغة؛ لعل ذلك يمكّننا من الإمساك بالآليات التي نحوّل بها الحياة عبر اللغة إلى ذلك العالم الذي نريد؛ فيكون للغة- حينئذٍ - دورها الفاعل في صناعة الحياة، شأنها شأن الاقتصاد أو السياسة أو غيرهما من النظم الفاعلة.

المصادر والمراجع:

- آرمينكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، بلا تاريخ.

-الأبشيهي: بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد المحلي(ت854هـ)، المستطرف من كل فن مستظرف، تحقيق إبراهيم صالح، ط1، دار صادر، بيروت، 1999.

-أدراوي، العياشي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني: من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، دار الأمان، الرباط، ط1، 2011.

-أشار (بيار)، سوسيولوجيا اللغة، ترجمة عبد الواحد ترّو، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1996.

-الألوسي، محمود شكري الألوسي البغدادي (ت 1342 هـ)، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1971.

-أنيس، تامر عبد الحميد محيي الدين، الإحالة في القرآن الكريم: دراسة نحوية نصية، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2008.

-أوستن، نظرية أفعال الكلام (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1991.

-بنكراد، سعيد، السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار، اللاذقية، ط3، 2012.

-بودرع، عبد الرحمن، في تحليل الخطاب الاجتماعي السياسي: قضايا ونماذج من الواقع العربي المعاصر، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015.

-التجاني، عبد الله محمد بن أحمد بن أبي القاسم (ت721هـ)، تحفة العروس ونزهة النفوس، حققه وهذبه وعلق عليه محمد إبراهيم الدسوقي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، بلا تاريخ.

-تغزاوي، يوسف، الوظائف التداولية واستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2014.

-الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ) البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1979.

-الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت 471 هـ)، أسرار البلاغة، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة، بلا تاريخ.

-الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت 471 هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني/ القاهرة ودار المدني بجدة، ط3، 1992.

-ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392 هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط4، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،1990.

-ابن الحاجب، عثمان بن عمر(ت646هـ)، أمالي ابن الحاجب، تحقيق فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار/عمان، ودار الجيل/بيروت، 1989.

-حباشة، صابر، قضايا في السيمياء والدلالة، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2015.

-ابن حبيب، أبو جعفر محمد (ت 245 هـ)، المحبّر، اعتنى بتصحيحه إيلزة ليختن شتيتر، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بلا تاريخ.

-الحسن، شاهر، علم الدلالة السيمانتيكية والبراجماتيكية في اللغة العربية، دار الفكر، عمان، ط1، 2001.

-الخطابي، محمد، (إشراف)، لسانيات النص وتحليل الخطاب، المؤتمر الدولي الأول للجمعية المغربية للسانيات النص وتحليل الخطاب، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أغادير، المغرب، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2013.

-خليفة: أحمد يوسف، قراءة في أدب الوصايا، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008.

-الدليمي، محمد نايف، جمهرة وصايا العرب، ط1، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1991. (ثلاثة أجزاء).

-ديك، فان، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، ط1،2000.

-ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، (ت456 هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1988.

-ريفاتير، ميكائيل، معايير الأسلوب، ترجمة وتقديم وتعليقات، حميد لحمداني، منشورات دراسات سال، المغرب، ط1، 1993.

-روبول، آن، وموشلار، جاك، التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1،2003.

-السجستاني: أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان(ت248هـ)، المعمّرون والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1961.

-السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت 626 هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987.

-سيبويه: أبو بشر عمرو بن قنبر (ت 180هـ)، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988.

-الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2004.

-صحراوي، مسعود، التداولية عند علماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005.

-الطبطبائي، طالب سيد هاشم، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، ط1 ،1994.

-ابن طيفور: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر الخراساني(ت280هـ)، بلاغات النساء، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الفضيلة، القاهرة، 1981.

-عادل، عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ط1، منشورات ضفاف، دار الأمان، الرباط، 2013.

-عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، عمان، ط2، 1989.

-العباسي، أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد (ت963 هـ) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ط1 ،2010.

-العبد، محمد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 2005.

-عبد الحق، صلاح إسماعيل، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993.

-ابن عبد ربه: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، (ت328هـ)، العقد الفريد، بتحقيق عبد المجيد الدحني، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت ،1987.

-عبد الرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1998.

-العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (ت395 هـ)، جمهرة الأمثال، دار الفكر، بيروت، ط2 ،2010.

-العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت395 هـ)، كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.

-العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي (ت 745 هـ)، كتاب الطراز، مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ.
-علوي، حافظ إسماعيلي، ومنتصر أمين عبد الرحيم (إشراف وتقديم)، التداوليات وتحليل الخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2014.
-علوي، حافظ إسماعيلي، (تنسيق وتقديم)، التداوليات: علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2014.
-علوي، حافظ إسماعيل، (إعداد وتقديم)، الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة"، ط1، دار عالم الكتب الحديث، إربد، 2010.
-عياشي، منذر (إعداد وترجمة) العلاماتية وعلم النص، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 2009.
-عياشي، منذر، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1998.
-الغانمي، سعيد (اختيار وترجمة)، اللغة والخطاب الأدبي، المركز الثقافي الملكي، بيروت، ط1، 1993.
-الغذامي، عبد الله، تشريح النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2006.
-الفريح: سهام، فن الوصايا في الأدب العربي القديم، ط1، مكتبة المعلا، الكويت، 1988.
-فولفونجانج (هاينه مان)، ديتر (فيهفجر)، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة سعيد بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2004.
-ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن محمد بن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، عيون الأخبار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ،1996.
-ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (ت 751 هـ)، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ط1، مكتبة المتنبي، القاهرة، بلا تاريخ.
- لاينز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987.
-المصرف: سناء ناجي، وصايا الآباء إلى أبنائهم خلال عشرة قرون: دراسة ونصوص، بغداد، بلا تاريخ.
-مصطفى: أحمد أمين، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،1990.
-مفتاح، محمد، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1990.

-ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت 711هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 1990.

-الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد إبراهيم الميداني النيسابوري (ت518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ.

-المودن، حسن، بلاغة الخطاب الإقناعي: نحو تصوّر نسقي لبلاغة الخطاب، ط1، دار كنوز المعرفة، عمان، 2014.

-ناظر الجيش، محمد بن يوسف بن أحمد (ت778 هـ)، تمهيد القواعد لشرح تسهيل الفوائد، ط1، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، 1428 هـ.

-الهاشمي، السيد أحمد، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2002.

-ابن هشام الأنصاري، جمال الدين (ت761 هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، حققه وعلق عليه: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله وراجعه سعيد الأفغاني، ط1، دار الفكر، بيروت، 1992.

-الوشاء، أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى (ت 325 هـ)، الفاضل في صفة الأدب الكامل، تحقيق يحيى وهيب الجبوري، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991.

الدوريات العربية:

- بوحوت، عادل، جمالية التجاوب في الأدب: الأسس والمفاهيم والإشكالات، مجلة عالم الفكر العدد3، المجلد 42، 2014.
- عبيد، حاتم، نظرية التأدب في اللسانيات التداولية، مجلة عالم الفكر، العدد1، المجلد 43، 2014.
- عيد، محمد عبد الباسط، النص والخطاب: المفهوم والإجراء، مجلة عالم الفكر، العدد1، المجلد 23، 2014.

المراجع باللغة الإنجليزية:

- Beaugrand)Robert De) and Dressler (Wolfgang), The Introduction of Text Linguistics, Longman Linguistics Library, London& New York, 4th Edition,1988.
- Brown. Gillian & Youl .George, Discourse Analysis, 7th Edition, Cambridge University Press,1988.
- Firth, J.R, Papers in Linguistics, Oxford University Press, London, 4th Edition,1964.
- Halliday (M.A.K) &Hassan (Ruqgaiya), Cohesion in English Language, Longman, London,1976.

- Searle. John.R., Expression and Meaning, Cambridge University Press, USA,1999.
- Van Dike.T.A., Text and Context, Longman, London,1977.

References

- Arminco, F. (n.d.). *The Pragmatic Approach* (1st ed.). National Development Center. Beirut.
- Al-Abshihi, B. M. (1999). *The extreme of every extravagant art* (1st ed.). Sader Press. Beirut.
- Al-Ayashi, A. (2011). *The Dialogue Impulse in Linguistic Circulation: From Awareness of the Qualitative Specifics of the Phenomenon to Setting Laws Controlling It* (1st ed.). Al-Aman Press. Rabat.
- Ashar, P. (1996). *Sociology of Language*. (1st ed.). Aweidat Publications. Beirut.
- Al-Alusi, M. (1971). *The attainment of the Lord in knowing the conditions of the Arabs, about it, explaining it, correcting it, and controlling it* (1st ed.). Al-Kutub Al-Ilmiyyah press. Beirut.
- Anis, T. (2008). *Referral in the Holy Quran* (1st ed.). Library for Publishing and Distribution. Cairo.
- Austin, (1991). *Theory of Speech Acts (How do we accomplish things with words)* (1st ed.). East Africa, Morocco.
- Benkrad, S. (2012). *Semiotics Its Concepts and Applications* (3rd ed.). Al-Hiwar press. Lattakia.
- Boudraa, A. (2015). *In the analysis of the socio-political discourse: issues and models of contemporary Arab reality* (1st ed.). Treasures of Knowledge press. Amman.
- Al-Tijani, A. (n.d.). *Bride's Masterpiece*. Ibn Sina Library. Cairo.
- Taghzawi, Y. (2014). *Pragmatic Functions and Language Communication Strategies in Functional Grammar Theory* (1st ed.). Modern Book World. Irbid.
- Al-Jahiz, A. (1979). *The statement and the manifestation* (1st ed.). Al-Jeel press. Beirut.
- Al-Jurjani, A. (n.d.). *Secrets of rhetoric*. Al-Iman Library. Mansoura.
- Al-Jurjani, A. (1992). *Evidence of Miracles* (3rd ed.). Al-Madani Press. Cairo. Al-Madani press. Jeddah.
- Jinni, O. (1990). *Characteristics* (4th ed.). Iraqi Ministry of Culture and Information, General Cultural Affairs press. Baghdad.
- Ibn Al-Hajeb, O. (1989). *Amali Ibn al-Hajeb*. Ammar Press. Amman. Al-Jeel Press. Beirut.

- Habashah, S. (2015). *Issues in Semiotics and Semantics* (1st ed.). Treasures of Knowledge for Publishing and Distribution. Amman.
- Ibn Habib, M. (N.D). *The inker* (1st ed.). Al-Afaq Al-Jadida press. Beirut.
-Al-Hassan, Sh. (2001). *The Science of Semantics and Pragmatics in the Arabic Language* (1st ed.). Al-Fikr press. Amman.
- Al-Khattabi, M. (2013). *Text Linguistics and Discourse Analysis* (1st ed.). Treasures of Knowledge press. Amman.
- Khalifa: A. (2008). *A reading in the literature of commandments* (1st ed.). Library of Arts. Cairo.
- Al-Dulaimi, M. (1991). *Jamharat Commandments of the Arabs* (1st ed.). Al-Nidal for Printing, Publishing and Distribution. Beirut.
- Dick, V. (2000). *Text and Context*. (1st ed.). East Africa. Beirut.
- Al-Qayrawani, A. (1988). *Al-Umdah in the Beauties and Literature of Poetry* (1st ed.). Al-Maarifa press. Beirut.
-Rivater, M. (1993). *Standards of Style* (1st ed.). Studies Sall Publications.Morocco.
- Rupaul, A., and Moschlar, J. (2003). *A New Science in Communication* (1st ed.). The Arab Organization for Translation. Beirut.
- Al-Sijistani, S. M. (1961). *The Longevators and the Wills* (1st ed.). Arab Books Revival House. Cairo.
- Al-Sakaki, Y. B. (1987). *Science Keys* (2nd ed.). Al-Kutub Al-Ilmiyyah press. Beirut.
- Sibawayh, A. Q. (1988). *The book* (3rd ed.). Al-Khanji Library. Cairo.
- Al-Shehri, A. D. (2004). *Discourse Strategies, A Pragmatic Linguistic Approach* (1st ed.). Al-Kitab Al-Jadeed press. Beirut.
- Sahrawi, M. (2005). *Pragmatics among Arab Scholars* (1st ed.). Al-Taleea for printing and publishing. Beirut.
- Al-Tabtabaei, T. S. (1994). *The Theory of Speech Acts between Contemporary Philosophers of Language and Arab Rhetoricians* (1st ed). Kuwait University Publications. Kuwait.
- Ibn Tayfur, A. A. (1981). *The rhetoric of persuasion in the debate* (1st ed.). Al-Fadila press. Cairo.
- Adel, A. L. (2013). *Rhetoric of Persuasion in Debate* (1st ed.). Difaf Publications. Al-Aman press. Rabat.
- Abbas. F. H. (1989). *Rhetoric its Arts and Arts* (2nd ed.). Al-Furqan press. Amman.
- Al-Abbasi, A. (2010). *Institutes of Statement of Evidence for Summarization*. Alam al-Kutub press. Beirut.

- Al-Abd, M. (2005). *Text, Discourse and Communication* (1st ed.). The Modern Academy for University Books. Qiro.
- Abdel Haq, S. I. (1993). *Linguistic Analysis at the Oxford School* (1st ed.). Al-Tanweer for Printing and Publishing. Beirut.
- Al-Andalusi, A. M. (1987). *The unique contract* (3rd ed.). Al-Kutub Al-Ilmiya press. Beirut.
- Abd-Al-Rahman, T. (1998). *The Tongue and Balance, or Mental Reproduction*. Arab Cultural Center. Beirut.
- Al-Askari, A. A. (2010). *Jamharat Al-Amal*. Al-Fikr press. Beirut.
- Al-Askari, A. A. (1985). *The Book of Two Industries*. Al-Kutub Al-Ilmiya press. Beirut.
- Al-Alawi, Y. H. (1995). *The Book of Al-Tiraz* (1st ed.). Al-Kutub al-Ilmiyyah Press. Beirut.
- Alawi, H. I. (2014). *deliberations and discourse analysis* (1st ed.). Treasures of Knowledge press. Amman.
- Alawi, H. I. (2014). *Pragmatics: The Science of Using Language* (1st ed.). The Modern World of Books. Irbid.
- Alawi, H. (2010). *Al-Hajjaj, its concept and fields*. The Modern World of Books. Irbid.
- Ayyashi, M. (2009). *Marks and text science*. (1st ed.). Center for Civilization Development. Aleppo.
- Ayachi, M. (1998). *The Second Book and Fatiha al-Mutaa* (1st ed.). Arab Cultural Center. Beirut.
- Al-Ghanmi, S. (1993). *Language and Literary Discourse* (1st ed.). Royal Cultural Center. Beirut.
- Al-Ghadami, A. (2006). *Anatomy of the Text* (1st ed.). Arab Cultural Center. Beirut.
- Al-Farih, S. (1988). *The Art of Commandments in Ancient Arabic Literature*. (1st ed.). Al-Mualla Library. Kuwait.
- Wolfungang, H. M. Dieter F. (2004). *An Introduction to the Science of the Language of the Text* (1st ed.). Zahraa Al-Sharq Library. Cairo.
- Ibn Qutayba, A. M. (1996). *News eyes* (1st ed.). Al-Kutub Al-Alami press. Beirut.
- Ibn Qayyim al-Jawziyyah, Sh. (N.D). *Interesting Interests in the Sciences of the Qur'an and the Science of Statement* (1st ed.). Al-Mutanabi Library. Cairo.
- Lines, J. (1987). *Language, Meaning and Context* (1st ed.). General Cultural Affairs House. Baghdad.

- Al-Masraf, S. (N.D). *Fathers' Wills to Their Children During Ten Centuries*. General Cultural Affairs press. Baghdad.
- Mustafa, A. A. (1990). *Testaments Literature in the Abbasid Era to the End of the Fourth Century*. Anglo Egyptian Bookshop. Cairo.
- Ibn Manzoor, A. J. (1990). *Lisan Al Arab*. (1st ed.). Sader press. Beirut.
- Al-Maidani, A. A. (N.D). *Proverbs Complex*. Al-Maarifa press. Beirut.
- Al-Moudin, H. (2014). *The Rhetoric of Persuasive Discourse: Towards a Systematic Perception of the Rhetoric of Discourse*. (1st ed.). Treasures of Knowledge. Amman.
- Nazir al-Jaysh, M. Y. (2007). *Preface to the rules to explain the facilitation of benefits*. (1st ed.). Al-Salam for printing and publishing. Cairo.
- Al-Hashemi, A. A. (2002). *Rhetoric Jewels* (1st ed.). Modern Library. Beirut.
Ibn Hisham, J. (1992). *Mughni al-Labib on the books of the Arabs* (1st ed.). Al-Fikr Press. Beirut.
Al-Washa, M. A. (1991). *The virtuous in the adjective of complete literature*. (1st ed.). Islamic West press. Beirut.

Arabic Journals:
- Bohut, A. (2014). The Aesthetic of Responsiveness in Literature: Foundations, Concepts and Problems. *World of Thought Journal*, 3(42). 7-40.
- Ebeid, H. (2014). The Theory of Politeness in Pragmatic Linguistics. *World of Thought Journal*, 1(43). 113-150.
- Eid, M. A. (2014). Text and Discourse: Concept and Procedure. *World of Thought Journal*, 1 (23). 12-24.

English Sources:
- Beaugrand, R. D., Dressler W. (2016). *The Introduction of Text Linguistics* (4th ed.). Longman Linguistics Library. London. New York.
- Brown, G. Youl .G. (1988). *Discourse Analysis* (7th ed.). Cambridge University Press. Cambridege.
- Firth, J. R. (1964). *Papers in Linguistics*. (4th ed.). Oxford University Press. London.

- Halliday, M. A. K. and Hassan, R. (1976). *Cohesion in English Language*. Longman. London.
- Searle, J. R. (1999). *Expression and meaning*. Cambridge University Press. USA.
- Van Dike, T.A. (1977). *Text and Context*. Longman. London.